الخفافيش

رواية

محمد عز الدين التازي

الكتاب: الخفافيش / رواية

الكاتب: محمد عزالدين التازي / روائي مغربي

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

التازي، عز الدين، محمد

الخفافيش / محمد عزالدين التازي– الجيزة:وكالة الصحافة العربية.

تدمك : ٠ – ١٣٣ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

٢٥٨ ص، ١٨ سم .

رقم الإيداع / ١٠١٣٨ / ٢٠٠٨

الخفافيش

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الإهداء

إلى..

كل من أخذوني معهم نحو تلك الجهات.

وتأمل أيها الكاتب أنه لا مآل لك، فمآلك هو هذه الريح التي تهب عليك من الجهات، بما تحلم به من الكائنات وما لها من النعوت والصفات، وبما تحرثه في أرض السياسة والكياسة، والعيافة والقيافة، فهم أبناء وبنات تلدهم مما بين صلب وترائب الكتابة، وهي أرحام وأجنة، وها أنت تحتار هل تعاشرها أم تعاشر نفسك في الوجع والذكري والمستطرف، والجارِح والميتنكف، والماثل للعين الرخيص والثري وما بين السرو العلن، و وجوه هذه المهن والمحن، تخلق عالملك وتحتي فيه وكأنه قد كان موجودا في المكان والزمان، فأنت لا مال لك، كان الله لي ولك، وللوراق، لقارئ هذه الأوراق.

"ابن ضربان الشرياقي"

تقديم لما حدث

حيث لا مكان
فالأماكن كلها تتسع لاخترفات الزمان
وبين ما يمنحه الإنسان للمكان
وما يريده المكان للإنسان
ألف مسافة للكشف والبيان

صدفة يمكن أن يتوغل الكائن في كينونته وهو يبدأ لحظات الذهاب الأولى نحو جهة من الجهات الست المعروفة، ومع ذلك الذهاب في كل واحدة منها يفقد ما كان ينطوي عليه من دهشة واكتشاف ربما يحكم تعوده على ما يراه في تلك الجهات من غرائب ومحن ومصائب، فتصير كل جهة كان قد ذهب إليها الكائن مخزونا من التجارب والأفكار والقلق وطرق المواجهة وحالات الخيبة والأخطاء التي منها يتعلم أو لا يتعلم الإنسان، وهي جهات ست ولكل واحدة منها وهي ذهاب مضن شاق معذب ومسل ومترف باللذات والعذابات.

كل واحد منا قد يظن خطأ أنه هو الأول الذي ذهب في جهة من تلك الجهات، بينما تؤكد تلك التجارب أن لكل جهة أثار خطي من كانوا قد عبرو مجاهلها وساروا في مفازاتها حتى جعلوا من كل جهة من تلك الجهات تواريخ غير مكتوبة وعلامات ليست مجردة، وإنما هي أبعاد لجغرافيا لا أدري هل اختطها الكائن أم أن وجودها كان قد تحقق قبل وجود الكائن.

وصدفة أيضا يجد الكائن نفسه وهو يتوجه نحو جهة سابعة هي التي توضح مدار حياته، وإن كانت ركنا قاصيا يوجد خارج الجغرافيا المعروفة أو زاوية للنسيان فهي الصدفة التي تجعل الكائن يصل إلى هذه الجهة السابعة ليسمنها أو تسكنها، وهو يختزل من خلالها الأبعاد والتفاصيل والجراح، هي جهة محفوفة بالأسرار والأوهام والألغام، ففي كل لحظة يتفجر جرح أو لغم ليعيد الكائن إلى جهة من تلك الجهات الست، وكأنه قد ارتج أو ارتد نحو بعض مما كان، ومع ذلك الارتجاج والاتداد يخرج الكائن من ظلماته وضوء عينيه حتى يرى ما كنت قد تكشفت عنه بعض التفاصيل.

وذلك أن هذه الجهة السابعة هي فراغ كبير وهائل يمتلئ دوما باشتباكات عجيبة لكل تواريخ تلك الجهات الست فهي جماع، ولكل ملتحم وغابة من الأضواء.

وتلك الجهة السابعة على كل حال ليست إرضاء محروثة بالزرع أو يبابا أو ساحة للحروب، وليست سماء للنجوم أو الغيم أو نقطة توجه روحاني لاكتشاف سجوف الغيب ولا يمينا أو يسارا لمواقع السياسة واحترابات‌ها.

وليست مجرد وراء لما يرثه الكائن من معناه وتجارب ولا هي أمام الأمام.

بل هي مخبأ سري يتم فيه تصعيد كل ما كانت تلك الجهات الست قد اختزنته من تاريخ لمعاناة الكائن، وفيها لا يمكن أن تخلد إلى المنام أو تضاجع امرأة أو تقول إلا إذا كان القول غير ما يقال.

صدفة يأتي إليها الكائن مصابا بجرحات تلك الجهات الست لا ليضمد جراحه، وإنما لكي يستعيد من الحقب والأزمنة واللحظات ما كان قد جعله يصاب بتلك الجراح، والحال أن العرق البارد يتصبب على جبهتيه في الشتاء، وهو لا شك أنه آت إلى الجهة من تلك الجهات الست.

الجهة السابعة ليست مجرد فذلكة أو مكان طوباوى.

بل هي ملجاء غير آمن يوجد في حياة كل الناس أو أغلبهم على الأقل، وفي هذا الملجاء غالبا ما يحضر ما في بطون الكتب والحطب، وما قاله أحد ومشي والثرثرات المهوسة بكلام يعيد نفسه في كل وقت وحين والبكائيات والأغاني والدم والدمع والسجون والتهتهات السكارى، وبقايا نساء عابرات في الظل وعبورهن لا يمكن أن يخلف سوى قليل من الوسن وترسانات

المحاربين، وإحراق الكتب وما تخبأ بين الكفر والإيمان والأحلام والذكريات والهزاتم والصبوات، ورجل تعذب في حياته بامرأة، وامرأة رجموها إنها أرادت ألا تمنح جسدها إلا لمن تحب وحب ما تحقق إلا في الخيال والشاظيا هي التي شظايا كائنات والأقاويل والأوهام ومالا يوصف.

ففي الجهة السابعة لا تجد تفسير لشيء أو حادث وإنما نجد أنفسنا أمام كل الأشياء التي كانت قد جعلت الكائن يرتبط بجهة من جهاته الست أو بها جميعا، وهي ترتب من جديد ترتيبا عجيبا وخارقا لكل عادات الترتيب، حيث لا منطق تكسير المنطق واستعصاء الوقوف عند جهة واحدة من تلك الجهات، ولأننا أمام وضع تتشابك فيه التفاصيل والصور والأفكار والمرجعيات ولحظات التاريخ البشري، وزخم دخول الزمن في أزمته فكل جهة من تلك الجهات الست أزمتها وتاريخها.

وها هي تمحى في الجهة السابعة لكي تظهر من جديد على شكل لبوس أوعلي شكل وجوه أو أقنعة أو ما بين الوجه والقناع.

وهي على حالتها تلك لا أوضاع لها تستقر عليها بل لها كل الأوضاع التي عاشها الإنسان، وكما تبدو له مدهشة وخارقة للعادة وكأنها تحدث أمامه لأول وهلة، ولذلك فهي ليست جهة الهروب

وإذا ما كان الإنسان قد تعود على الهروب من نفسه أو من الآخرين فقد تكون كذلك.

وهي أيضا ليست مرآة عاكسة أو محدبة أو مقعرة، لأن ما تعكسه لا يوجد أمامها بل وراءها أيضا، وحولها هنا وفي كل مكان.

وأنا عبد الحميد وستعرفوني فيما بعد، لكني أخبركم الآن بأني أحيا في هذه الجهة السابعة التي هي جماع كل ما يمكن أن يوجد في الجهات الست، وقد قررت ذات يوم أن أكتب كتابا يضم كل الأحلام التي كنت قد حلمت بها ومنذ طفولتي إلى اليوم، وأتتني هذه الفكرة بعد أن بلغت السنين من العمر، وبالفعل كتبت نتفا من هذه الكتاب ولم أتجرأ على الاستمرار في الكتابة، لأن تلك الأحلام التي أردت كتابتها كانت غير قابلة للتصديق، وقلت لأكتب كتابا حتى وإن كان غير صالح للنشر وسيبقى بدون قارئ.

جربت أن أدخل البياض في السواد والخيط في الإبرة والسكين في العظم، ثم استنكرت على نفسي هذه القسوة التي هي قسوة الجهة السابعة أنا أحيا في براكتها التي تدفع الحمم ثم قلت لماذا لا أكتب كتابا عن هذه الجهة السابعة، فوجدته كتابا سوف يحفل بتواريخ البشر والديانات وأشكال الحروف واللغات

والحب والموت وأنواع حضور العقل أو تغييبه إيراديا بفعل المسكرات والمخدرات والأغاني والخطب والوصايا، وحفيف الأشجار وذبذبات الأسير وأشياء أخرى كثيرة تستعصي عن أن أذكرها كلها الآن.

وقلت لنفسي كتابا كهذا لا يمكنه أن يتناول موضوع الجهة السابعة إلا إذا كان وصف علاقة الكائن بكل واحد من الجهات الستة، وأنا لست باحثا أو عالما فلست ممكن يكتبون تواريخ المواتي ولا من المنجمين أو الرحالة المغامرين، وإنما أنا هو عبد الحميد.

كيف إذن يمكن عبد الحميد أن يكتب كتابا يجمع كل ما في الكتب في كتاب واحد؟

هل هذا ممكن؟

والمسألة تتعدى ما في بطون الكتب وأمهاتها وآبائها إلى ما في هذه الجهة السابعة من فتنة وافتنان، وما فيها من حرب تنشب بين الجهات وتغيير للمواقع ودخول الجهة في جهة حيث لا يعلم أحد كيف يتم الخروج وما فيها ومجرايات وأحداث ووقائع ومستحيلات لا يمكن أن يصدقها العقل.

وأنا عبد الحميد ناقص عقل، ولذلك يكثر عندي الكلام فمن ربح عقله يقل عندي الكلام، والمسألة في غاية البساطة لأن رابح العقل لا يعجز عن الكلام، وإنما أن يمسك عنه ويحفظ اللسان أن يخوض في الأعراض حتى وإن كان عرضه أو أن يبلغ في الدم دون تلك الجراح التي قد يظن أنها قد صارت منسية، وهي ليس مجرد دماء أناس يعيشون حول بل هذه الدماء الذين جاءوا من كل تلك الجهات الست بأفكارهم وعذابتهم وأيامهم السوداء والبيضاء ليحيوا معي في هذه الجهة السابعة، وليكونوا قريبين أو بعيدين مني فهي جهة تضيق أو ترحب بحسب الأوقات والأمزجة وأنواع المعناة وقد يلتقي الناس فيها من غير أن يتواعدوا على اللقاء أو يرى بعضهم أو يشعروا بوجود غيرهم كل في شأنه ولا وقت للتعارف لا بثرثرات.

عرفت أني ناقص عقل لأني لم أكف عن الكلام في أي مناسبة منهم من المناسابات حتى تلك التي لم يكن مع فيها أحد، أي أنني كنت أخاطب أناسا يأتون من أماكن بعيدة، ومن تواريخ تلك الجهات الست ممن لا أعرفهم بالتمام والكمال، وكنت أعرف قليلا أو كثيرا عن انتمائهم إلى جهة من تلك الجهات، سواء كانوا تجارا مثلي أو صناعة مثل والدي المرحوم رجال الدين أو السياسة حمقى مافوفين حفاء عراة أو متطاولين

في البنيان أو مغنيين أو لصوصا أو قتلى أو باعة صورة للشيطان حالمين أو صانعي أفكار، فإنني كنت لا أكف عن الكلام معهم ولا أصون لساني لأبقى عليه نظيفا في مكان يبلغ فيه في الغالب هو دماء فاسد لموت أحياء أو لأحياء أموات لا تجمعني بهم أي علاقة سوى علاقة الجهة السبعة أو الست.

وناقص العقل هذا محدثكم هو عبد الحميد الدباغ ولا أعرف سوى أنني كنت ولدت من أب قضى حياته كلها في دبغ الجلود شيخ المتصوف في زمانه، وكبير العارفين أما الاسم التي تحمله أسرتنا إنما جاء من حرفة الوالد ولم أشغل نفسي بهذا الموضوع، ولكن الرشفاء حينما أرادوا أن يصنعوا لضريح العالم قضب الكسوى وغطاء وجاءوا ليتشاور معي فأعطيتهم مالا كثيرا كنت أهبه لواحدة من تلك الجهات الست، وعبد الحميد لا يمكن أن يتوانى عن العودة من جهته السبعة إلى تلك وهذا ليس مهما، ولكن الدباغ أي دابغ الجلد وقبل دبغه يكلف من يقوم عادة بغسل الجلود في ماء مندفع لينزع عنها كل روائح الدم الخائزة وكل بقايا التعفن، ويملحها بالملح بالتعرض للشمس فهي جلود أبقار وماعز وغنم لم يكن الدباغ لم يشاهد لحظة ذبحها ولم آكل من لحمها ولكنها هي صنعت ورزقها الحلال، فقبل أن

يكشط الصوف أو الوبرة عن الجلد فلابد أن هناك من يغسل كل آثار الدم.

ما يهم من حكاية والدي الدباغ رحمه الله، هو هل أنا دبغت جلدي وقبل أن ادبغ جلدي هل دبغت لساني؟

وهذا سؤال محير لأنني لا أعرف كيف أجيب عنه، فكل ما أعنيه بدبغ الجلد ودبغ اللسان هو أن أكف عن هذه المحادثات مع الناس ومع نفسي وأن أذهب في زوال نهائي أو لا نهائي، حيث يتحول أنا الآخر إلى واحد من كل الذين كانوا قد تركوا آثار أخطائهم على جهة من تلك الجهات وأقصد أولئك المجهولين الذين لا تاريخ لهم سوى تاريخ الجهة التي كانوا قد ذهبوا فيها.

وليكن فإن ذهابي صدفة قد أوصلني إلى الجهة السابعة وهي جهت الجهات يمكن أن يترحم على واحد منكم أو أن يذكرني أحد بسوء في ليلة جنازتي، وهو يملأ فمه بكسس عشاء البقر فما هو ذاهب حيث إن كنت ذهبت ولا هو ذاهب معي حيث سأذهب، ويمكن لسقاء عجوز أن يرش قبري برش الماء وهو ينظر أن يقبض عليها الزمن مستلقي السمع إلى ما يقال عن الميت، وما طرق وما كان وأين كان من غير أن يعلم ذلك السقاء

الذي يسق القبور أن جهة واحدة لا يمكن أن تنوب عن باقي الجهات، وحتى والدي زكريا لن يدري بذلك.

الجهات ليس مجرد أماكن ولكنها تواريخ العنف الدموي ظل يمارسها الكائن على الكائن، إما للتلذذ بالدم أو لمجرد الرغبة في رؤيته مع التظاهر الكاذب بشيء من التقزز والنفور وإصدار كلمات التعفف والدهرنية أو لكسوة الكائنات على بعضها، حيث تصبح الكسوة نظام لها أولوياته في كل الجهات، ففي جهة الوراء على سبيل المثال نجد قبيلا لا يعرف كيف يجيب حينما سئل أين هو هابيل، إنه قاتله تعلم من الغراب يفعل كيف يدفنه لإخفاء أثر الدم، والحقيقة أن القاتل والمقتول يختلطان على كما يختلط على اسم قابيل مع اسم هابيل، ولذلك فقد لجأت إلى حرف القاف لكي أرسخ في ذاكرتي اسم القاتل وهو هي قاف قابيل.

وفي جهة الفوق حيث السماء واسعة برحبتها لم نر من طبقات من كلام حول الوجود الخالق، فقبل أن تظهر الديانات السماوية حاملة للبشر فكرة التوحيد كان عابد الأصمان وعباد الشمس وعباد كما يدعون وعباد الأفكار التي اخترعوها لكي يتقاتلوا مع أن العبادة على ما يبدوا لا تستدعي إهدار الدماء

ولكن هاجم ماني، على سبيل المثال الذي عرفت فلسفته بالمنوية فقد كان أعرق قميئا وما كان يتوجب أن يوجد أحد على هاتين الصفتين من بين رجال الدين في عصره، ولكنه حير كل الكهنة بما ادعاه من أنوار لا تأتي من تلك الأنوار التي كان من سبقها يدعون أنها واحدة هي مصدر الأنوار، ولذلك امتحنوها وحاكموها بتهمة الأديان وبأفكار دينية جديدة هي التي أتى بها إلى مسار بادي في علاقة الكائن بالجهة العلوية.

ومن عجب الجهة السفلية لها دمها الملتذة هي الأخرى، فقد كان اورفيوس هابطة إلى العالم السفلي وممنوع من النظر إلى الوراء وكان الإنسان ليس له سوى جهة واحدة هي التي يتحتم عليها أن يتجه نحوها إذا كان هذا قد حدث في أزمنة سحيقة فهو مازال يحدث اليوم دون أن يتغير الشيء في نظرة الكائن في الجهات إلا إذا كان قد وصل إلى الإقامة في الجهة السابعة.

أنا كنت كشافا في الكشافة الحسنية مع بداية الخمسينيات، وقبل استقلال المغرب ومع الكشافة صعدت الجبال ومشيت في الغابات، ووصلت إلى منابع الأنهار ومصباتها ودخلت المغارات ورأيت الشروق والمغيب وعاشرت كائنات

الليل حتى تشابهت مع كل الكائنات التي كانت قد مرت من كل تلك الأماكن سرت في الأرض صعودا وهبوطا، ورأيت الليل كيف يدخل في النهار وكيف يدخل النهار في الليل، واستعادة حالة الإنسان الأولى، وأنا أصعد الجبال وأنام في العراء، وأتوغل في الغابات حاملا حربتي التي هي عصى غليظة في رأسها حديد حادة مسنونا الرؤوس والدفاع عن النفس فقد يهاجمني ضبع أوسبع.

لكني من الكشافية تعلمت أن الكائن ليس له جهة واحدة، ولهذا ظلت مسألة كتابة ذلك الكتاب الذي حدثناكم عني تشغلني وهو الكتاب الذي يجمع كل الكتب في كتاب واحد، ويغني الكتب كلها، فلا يغني عن سوى عن كتاب واحد هو كتاب الله العزيز وما كنت أقصد بذلك كتابا يضاهي القرآن الكريم، وحاشا لله، فالفكرة لم تخطر على بالي لأن كتاب الله منزل، وإن فكرت في كتاب يكتبه إنسان يكون من وحي قلمه وتجربته في الحياة فإياكم أن تخرجوا كلماتي عن موضعها إلا إذا كنتم من القسائم الذين يتلزون بالدم، فهذا حسبكم وحسبي الله.

ولما حان الوقت ومن غير أن أخطط له التقيت صدفة بالكاتب وهو يوسف الطاهري، كما سوف تعلمون، وطالبت منه أن يكتب عني بالنيابة ذلك الكتاب.

ذهبت إلى نادي الفروسية لأحتسي كاسين أو ثلاثة، ولكني قبل أن أتوجه للنادي ممرت بالإسطبل وأتطلع على فرسي لوكي كانت جاسمة، ولكنها ناهضت وأخرجت رأسها من الفاتحة، فمرت راحتي على حنكيها ولم تكن معي قطعة سكر حتى أطعمها أيها ولم أتبين هل أكلت علفها، فتركتها وأدخلت النادي، وهناك وجدت موالي عبد السلام محرز، ومعه شخص لا أعرفه فأجلستهما ولما سألته عن فرسة خولة أخذ يتحدث عن تلك الجوت التي جالها فوق خولة، وهي منتشية تكاد لا تلمس الأرض بحوافرها، وقال إن ظهرها يعلو فوق ظهر كل امرأة، فبدا مغمورا بفرحة النشوة التي أصابتها حتى ظن أنه خارج لتوه من حضن امرأة باذية ومجربة مدافعتها إلى اكتماء مكامن اللذة في عروقه حناياه، وضحك، وضحكنا ثم قدم إلى مجالسنا الذي كان لم ينبذ بكلمة، وإن كان يضحك على مايبدو لمسايرة لجو الجلسة، فقد رأيت الغياب حاضرا في نظرته الشاردة.

كان نحيلا الوجه غير مبال بتصفيف شعر رأسه أو تشبيب شعر لحيته المدببة حركاته طائشة لا معنى لها ولما أخبرني مولاي عبدالسلام بأن الرجل كاتبا يكتب القصص والروايات فقد عدت مع نفسي إلى موضوع الكتاب الذي لم أكتبه وما أردت أن أحرج الكاتب الشاب بذلك السؤال عن كتابة كتاب يجمع كل ما في الكتب، ويتعدى ذلك إلى ما كانت قد عرفته الجهات الست من آثار خطي ظنا مني بأنه لن يفهم ما أقول، ولكني سألته:

– من أين تأتي بحكايات وتجارب قصصك ورواياتك؟

فارتبك وتلعثم واحمرت وجنتاه، وقال وكأنه يقذف في الكلام من أعلى جبل ليسمع صداه:

– من الحياة

وبادرته بالسؤال:

– وما هي الحياة هل هي جهة أو جهات؟

فتتدخل مويا عبد السلام فقال لي:

– شيف عبد الحميد أنت تتفلسف والكاتب لا يفلسف الحياة، وإنما يكتب عنها كما هي.

ثم رشف من كاسه وقال:

انظر مثلا إلى خولة، فهي تاخذني على صهوتها جهة الفوق، وهي لا تعرف جهة الوراء إلى مكان من خباها في بعض الأحيان إذا ما كان ترقص، وتتطلع الكاتب إلى مولاي عبد السلام وكأنه أراد أن يقول شيئا، ولكنه لاذ بصمته، وذهب نحو جهت ذلك الغياب، فقلت لنفسي ربما يكون هذا الشاب من حزب الاتحاد الاشتراكي، وقد يكون ماركسيا له أصحاب في المعتقل ولعله يعرفني كمنضم للتجمع الوطني للأحرار، ولذلك هو لا يتنفس الهواء الذي أتنفسه وسألته:

- وما عدا الكتابة أين تعمل؟

أصعده السؤال من بئر عميق وقال:

- مدرس فلسفة.

ابتسمت وقلت له:

- أهلا وسهلا.

بغير شعور مد لي يده بالمصافحة وصافحته وضحك مولاي عبد السلام، وقال:

- والله لكان لخولة اليد لكانت لا تكف عن مصافحتي، ولقبلت تلك اليد ودع النادل للأديان بكئوس أخرى أعلن أنها على حسابه ثم تفرسني وابتسم، وقال:

- ماسر اهتمامك بيوسف هل قرأت له شيئا؟

قلت:

–لم تعد لي مكتبه في الدار، فأنا أسكن في غرفة في فندق كما تعرف، وبعض الكتب أقرأها وأهديها لأصحابي.

وأضاف مولاي عبدالسلام:

– ماذا تريد مني؟ هل ترغب أن يكتب لك سر حياتك؟

ودون تفكير قلت:

– إذا شاء.

تطلع الكاتب في تلك اللحظة فاقتحمت نظراته المنكسرة بنظراتي وقلت له:

– نسجل على الأشرطة فأنا ناقص عقل، لذلك أكثر من الكلام.

وسألني ذلك الكاتب:

– ماذا سوف تفعل بالأشرطة؟

فقال له مولاي عبدالسلام.

– أنت تفرغها على الورق وتعيد صياغتها بأسلوبك الأدبي، وقال الكاتب:

– أنا لا أكتب تحت الطلب.

فقال له مولاي عبد السلام:

– هذه ليست كتابة تحت الطلب، فأنت سوف تتزوج بمواد حكائية لك أن تحذف منها ما تشاء.

ولك أن تضيف إليها ما تشاء وفكرت في أن قلمي، وأن قلم هذا الشاب ربما يحيى بوارا في أرض غير محروسة وأنه قد يهتدي بحكم ما سأقول إلى تلك الجهة السابعة ليصاحبني فيها، وأصحابه وقد نصل معا إلى كتابة ذلك الكتاب الذي لم أقض فيها أحلامي كما كنت في بداية المسالة أرغب، ولكن إلى كتاب يحتوي على كل الكتب ويزيد على ذلك ما ليس في الكتب من تاريخ ووقع خطئي لمن عبره الجهات ثم فكرت بأن أغريه بالمال إن أراد فقلت له:

– كم سأدفع لك مقابل هذا العمل؟ والطبع على حسابي فما كان منه إلا أن جفل ونهض خارجا من النادي، فذهب مولاي عبد السلام من وارئه وأعاده إلى جلستنا أسفل الوجه غائر العنين فابتلع كائسه دفعة واحدة وقال لي:

– أنت حمار.

ضحكت أنا ومولاي عبد السلام، وزاد تأكدي من أن هذا الشاب الكاتب ولد أصيل يمكن أن أعمل معه في كتابة الكتاب، ولذلك فقد هدأته ببعض الكلمات، وسنخوض تجربة لم نخضها

من قبل كما قال، واتفقنا على أن نبدأ الجلسة الأولى في مساء الغد بالفندق، وفي غرفتي اعتدت ما يسعف بالكلام، ولما جاء الكاتب وفتحنا جهاز التسجيل لم أعرف من أين سأبدء، وبدوت مرتبكا وشاردا غير قادر على الكلام حتى عرفت أنني لا يقصر عندي الكلام إلا حينما أكون وحيدا وأحس الكاتب بالخسران، فسقيت كأسا بعد أخرى، وقلت له:

– لا أعرف من أين سأبدأ.

نظر إلي وقال:

أبدأ من أين أي حادث تتذكره من محنة أو محن التي ممرت بها قلت، لكني لا أحب أن نكتب كتابا عن حياتي وتجاربي.

فقال:

– وماذا تريد؟

لم أدرك كيف أشرح له فكرة الكتاب الذي يحتوي كل ما في الكتب مخافة أن ينفر من العمل معي ويتركني فقلت:

– هل نؤجل إلى الغد؟

فوافق على ذلك وانصرف.

في تلك الليلة وبدأ ذهابه ومن غير مسجل حكيت لنفسي لكل ما يجري لي ولغيري في الجهات الست، كيف وصل ووصل بعض الناس معي إلى الجهة السابعة، حكيت كل ذلك لنفسي في وقت وجيز، وأنا منبهر بتدفق الأفكار على ذهني والأحداث والرؤيا والوقائع، ولعلي كنت عرقان وأن مستلقٍ على الفراش لا أجد اللحظة المناسبة لتجفيف العرق على جبيني وعنقي، وكان ذلك الكتاب قد كتب بالتمام والكمال وفي ليلة واحدة أو في وقت وجيز من تلك الليلة، ولكنه لم يكتب فنهضت من الفراش واقفا وأضأت نور الغرفة وشربت كأس ماء ولما طرحت على نفسي سؤالا من أين كنت قد بدأت حد بمثله في الغد مع الكاتب وآلة التسجيل، فقد نسيت ما كنت قد استعرضته من تفاصيل ذهابي في الجهات، وما تذكرت سوى أنني كنت أضحك في بعض الأحيان وأسمع جاري في الغرفة المجاورة ينقر على الجدار بنقرات كي ينبهي إلى أنني قد أزعجت منامه وسرعان ما سمعته وقع خطي على الممر، وطلقات على الباب غرفتي فلما فتحت الباب وجدت أناسا ميزت من بينهما وجه حارس الليل في الفندق الذي قال لي:

عبد الحميد هل ندعو سيارة الإسعاف؟

ولم أعرف كيف أراد، حيث كانت عيون أؤلئك الغرباء نزلاء الغرفة المجاورة تتخلص بنظراتها على دخل الغرفة ولما استدارت إلـى الجهـة ورائـي وجـدت أمـامي كـل الكائنـات ذلـك الـوراء واحتارت، ولكني تخلصت من ذلك الموقف بكلمات لطيفة بعد ضبط الأعصاب، وعاد الكل إلى فراشه، وعدت أنا إلى الجهة السابعة في الغد جاء الكاتب في موعده، ويمكن أن أقول إنني قد شغلتها بقليل من الكلمات حتى استدرجتها إلى الذهاب نحو النادي، وهناك وجدنا مولاي عبد السلام محرز يجلس وحيدا فجلسنا، وحدثنا مولاي عبد السلام ضاحكا عن جولاته مع خولة وما أصابه من تلك الجولات من ذهاب نحو جهة الفوق على سهوطتها إلا أن أصابته الرعشة الكبرى كما قال، وسألنا:

– هل ما يحدث لي مع خولة هو فعل حرام؟

بقينا ساكتين فتغيرت نظاراته وقال:

– حقا إن وضوئي ينتقد ولكنه ليس زنى كما أرى على كل حال وعاد يضحك، وقال:

– خولة بسحرها وبهائها تفوق كل امرأة وما عليّ إلا أن أسال العلماء لأعرف الحلال من الحرام: فقلت:

– لا تسألوا عن إشياء إن........

نظر إلى الكؤس التي أمامنا وقال:

- الله غفور الرحيم.

وساد الصمت بيننا ما عدا ما كان من هرج على بعض الموائد وسخط النادلين، وهم يتبادلون الأحاديث فيما بينهم، وبعد حين قال لنا مولاي عبد السلام:

- هل سجلت شيئا في ليلة البارحة؟

- فرد عليه الكاتب:

- الأستاذ كان غير قادر على الكلام.

وأفرحني جوابه، فقد استرجعت الفرق بين حالتي ونقصان العقل ورجحانه، وقلت لنفسي إن مثل هذا الكتاب لا يكتب إلا فيما بين البينين، أي فيما بين جهة وأخري، حيث ينتفي للجهة مكانها الخاص، ويدخل ذلك المكان في جهة الجهات وهي الجهة السابعة.

وسأختصر عليكم في الكلام، فالرشرائط هاه هي بين يداي يمكن أن تستمعوا إليها وأن وما قرأته في كتاب الخفافيش فهو مجرد ظالم باهت لأضواء ساطعة كانت تضيء طرق تلك الجهات الست، فلعل الكاتب كان قد شغل وقته ووقتي بأشياء

عادية تحدث في كل مكان وأما الجهة السابعة فلم يتمكن الكاتب من انتهائها معي وأنا عبد الحميد أقول لكم، إن رواية الخفافيش هي محط افتراء علي وعلى الجهات الست، وعلى الجهة السابعة التي أسكنها حتى، وهي في غرفة في فندق صغير، فالعالم صغير، ولكنه كبير وأنا المفترى عليه عبد الحميد الدباغ الذي لم يدبغ جلده ولسانه بعد أنصحكم بقراءة هذه الرواية بما هي خدعة إن طلت عليه، لأن هذا العبد الضعيف الفقير أي الله ما أراد أن يصف إلى ما لا يوصف من حيث إن الكائن يولد صدفة أو بقدر محتوم، ويتوغل في كينونته ليذهب نحو الجهات الست، وكتاب الكاتب هذا مجرد بدعة، لأن الكتاب ا قد التفته في ليلة واحدة هي ليلة الفندق تلك التي حدثتكم عنها، فما بال هذا الكاتب الشاب يدعي أنه قد أمسك بتفاصيل حياتي الخاصة، وما حياتي وسيرتي هي كل شيء؟ علما بأن ذلك لا يهم فهو لن يحدثكم عن الجهة السابعة في هذه الرواية إلا من حيث كونه لم يتساكن معي فيها، ولذلك فإن هذا الكتاب ليس هو الكتاب الذي يمكن أن يجمع كل ما في الكتب في كتاب واحد، ويزيد على ما فيها معاناة وأوهام وأحلام تلك الكائنات التي عبرت في الجهات الست حتى أوصلتها الصدفة نفسها إلى الجهة السابعة.

وأنا حدثت نفسي كثيرا عن مبياض الحيتان في أعماق البحار وأوقار النسور، وجحور الأفاعي، وكنت قد رأيت نفسي أفعى تواجه العطش في الصحراء لا حدود لها، ولما صارت تلك الأفعى نفسها ذات حجم كبير فقد عرفت أنني ذلك النسر الذي يميل على جناح واحد في سماء الله الواسعة، باحثا عن فريسة ولا أدري كيف صرت حوتا من ذلك الحوت الذي يأكل ما هو أصغر منه، ويخشي ما هو أكبر منه من الحيتان، وفي تلبس تلك الحالات كلها أدرجتني صحوة العقل فأنكرت على نفسي وعلى غيري تلك القوانين الجائرة لكني رأيت الحيتان تلد حمارا جميلا أبيض سرعان ماكبر أمامي، وأول ما برز منه أدناه وقواطعه التي صارت صفراء، وقد عاشت نجما قطبيا كان يهل فوق المقبرة التي كنت آوي إليها في بعض الليالي، فكان ذلك النجم مؤنسا لي في عالم الموتي، ولقد سمعت ضجيجا يأتي من إحدى الجهات ممزوجا بالصراخ والتصفيقات فعلمت أن الساسة يخطبون الخطب، كما استبدت بي الوحشة، وأنا أرى نافورات الماء والسواقي تفيد دماء، فمشيت هائما على وجهي فلا الأرض لا أدري أأسير إلى الأمام أم إلى الوراء.

فأنا براء من كل ما سوف يحدث لأنه سوف يهب للريح من هبوب تلك الرياح التي لا تنجح في أن تغير مجاريها، وهو لذلك ليس سوى كذب يدحضه ما في الشرائط وهاجم إياها تستمعه أي صوت عبد الحميد.

شطح

الأماكن تزهو بقرب أو بعد عن الوصول
والكائن يصل أو لا يصل
ذهابا في رحلة المستحيل
مهمورا بأضواء الأماكن التي كأنها عتمات النفس

لاح في أفق هذا اليوم شيء قادم كأنه ربيع أو خريف
بشارة أو خسارة، ربما ولادة لم تكن لها أي تبشير
ولم تظهر علامات مخاضاها لأحد.

وروحت أرى نفسي في صباح ذلك اليوم أحلق في الفراغ بعد أن تسلل نظري نحو الأعلى، حيث حلقت الدار التي هي سقفها العلوي المفتوح على السماء والحلقة هي الفتحة الوحيدة الممكنة التي يدخل منها الضوء، ومنها نرى السماء إن كانت صافية زرقاء أو مدمدمة بالسحب الآتية بالمطر إذا ما كنا تحت في الباحة في إحدى الغرف السفلى، مع أن كل الغرف الطابقين العلوي والسفلي نوافذ تطل على خارج الدار، فمن الحلقة يدخل الضوء وكل نوافذ الغرف مفتوحة على الباحة، حيث تقعد الآن أمي على فروة خروف وهي تتهيأ لفعل شيء.

صرت وكأني أصعد فما كان ثم من شيء يمكن أن أفعله في هذا الفراغ الهائل الذي يحيط بي، وأغثت معالم الأشياء وأبواب الغرف تغيم ثم تمحى، وتحولت أمي لآلة خدوج إلى كائن مرئي أحس بوجوده قريبا مني ولا أراه، وفي ذلك الصعود خدوت وكأني أتحرر من فراغي ذاهبا في اتجاه لم يسبق لي أن ذهبت فيه

وأن أشعر بالخفة، ولا أدري إن تحولت إلى ريشة من جناح طائر أم أنني قد صرت إلى فناء جسدي وأن شيئا مني هو الذي كان يصعد هادئا في صعوده مقتربا من تلك السياجات الحديدة التي لم تمكني من مزيد من الصعود لإخراجي من تلك الفاتحة التي تجعل دارنا قريبة من السماء، وما تلك الأسجة سوى شبكة من حديد تسمح مربعتها الصغيرة بدخول الضوء والمطر والطيور، مع أن الغرض منها أن تمنع لصوص الذين غالبا ما يتسللون إلى البيوت من السطوح، لم أحس أي اصطدام حقيقي لجسدي بذلك السياج الحديدي، فما ارتقى رأسي ولا انتقد عظام جسدي، فقد صرت كائنا بدون رأس وجسد، وما تهاوت هابطا ولكني بقيت هناك، وقلت لنفسي ماذا لو حدث لي مثل هذا الصعود وأنا في سطح الدار فإلى أين كنت سأصل وماذا كنت سأرى، وهل كنت سوف أتحصر على فقدان هذا الرأس وهذا الجسد؟

وما دريت أين ذهب مني الرأس والجسد والأطراف فقد كنت أشعر بوجودي، ولكني لا أحس لي بجسد وأنا أهبط خفيفا.

كالظل لا أدري كما بقيت هناك كما لا أعرف كيف كان هبوطي إلا أنني رأيت أمي لآلة خدوج تضع طحين القمح في

القصعة، وتنظر إلى الزلافة التي فاض على حوافها ما كان قد تخمر من خمير العجين احتفظت بها من البارحة وقالت: أين يا عبدالحميد؟

اقتربت منها وقلت:

– ا أنا.

قالت:

تعال اسقِ لي ماء للعجين، نسقي الماء الصالح للشرب، ونحضر الطعام من سقايا الحي، وليس في دارنا سوى معدة ماء تظل تقبقب، وفي الشتاء يكون ماؤها عكرا أحمر بما يحمله معه من أتربة، أما في الصيف فيصفه ماؤها، فكانت أمي تصفيها في الخرق منسوب حياتي وتصب في الخابية يرشح منها الماء، فتلقي أمي عليها حبات من زريعة الحق، فينموا الحق على حواف الخابية المغطاة دوما بغطاء فوق كائس من زجاج أصفر، وكان ذلك الحق يشعشع باخضرار متنام يفتح النفس وما توانيت ولكنها نهرتني:

– الماء للعجين.

أخذت الإبريق هممت بالخروج، ولكنها قالت:

– الإبريق لا يكفي خذ السطل.

وخرجت وسطل الماء الفارغ في يدي، مقلبا إيهاه على يميني ويساري ومرة أجعله خلفي أو أمامي أو أجعله يدور حولي، وأنا أدور حوله، وكنت مازلت أفكر في صعودي ذاك الذي ولا شك وقع من بعده هبوط لم أدرك كيف تم في الطريق، وجدت أولادا وبنات يلهون بسطول الماء قبل أن يصل للساقية ليجتمعوا حولها، لاهين متمازحين متراشقين بالماء اقترب مني العابسي وقال:

–شف هاد الرجل هو أب كنزة.

فرأيت رجلا قام من رأس الدرب طولا وعرضا يرتدي قفطانا وبداعية وسرولا قندرسية والطاربوش الأحمر على والبلغة الزيوانية في قدميه يميل بخطواته على الجانب، هو ذلك الجانب الذي تستقر عليه شقارة الجلد، وقال العباسي:

الجزار.

فقلت:

ومن هو الجزار؟

قال العباسي:

ذلك والد الكنزة وقلت له:

وأين هي الكنزة؟

فضحك وقال:

بنت من بنات الحومة ومتعرفهاش؟

اقترب الجزار من البنات وصاح:

كنزة ارجعي للدار.

توقفت البنات عن القفز على الحبل المطاطي وخرجنا من تلك الحلبة التي كنا قد خططنا معالمها بالطباشير، وتراجعنا جمعيا ناحية أبواب البيوت فلم أدر أيهما كنزة.

سألت عباس: أيهما كنزة؟

ضحك وقال:

– كلهم كنزات، ولكن كنزة واحدة والدها مراكشى.

وسألته:

هل هو من مراكش؟

وبدت نظرات ماكرة في عين العباسي، وقال لي:

– أنت لا تفهم يا عبد الحميد.

وأردت أن أقول شيئا ولكنه ضحك وقال:

– إذا كان من مراكشي فلماذا جاء ليسكن في فاس؟

وبعد صمت قال:

– هو فاسي ولكنه عنده عاد أهله من مراكش.

والحقيقة أنني لم أفهم شيئا فسألته.

– وما هي عادة أهل مراكش؟ اسمع إذا ابتسم لك وأعطاك ورقة بمائة فإياك أن تأخذها منه.

– ولماذا سيعطيني مائة ريال؟

– حتى....

وصنع العباسي فجوة بيده اليسري المضمومة، وأخذ يدخل فيها وسط يمناه ويضحك، وخشيت أن يرأنا أحد وهو يفتعل تلك الحركات فاستدرت نحو الضرب، وما كان أحد يذهب أو يأتي، فأردت أن أبتعد عن عباسي في اتجاه سقية الماء لا ماء السطل، وأعود به إلى أمي، ولكنه أمسكني من ذراعي، وكان شده على ذراعي قويا، فالعباسي يكبرني بأربع أو خمس سنوات، ومع ذلك فهو لم يصل معي إلى قسم الشهادة الابتدائية يعلمني كيف نضرب بالرأس، وكيف نركل في الوسط، فالنصيب من الخصم ذلك المكان الأشد إيلاما يحدثنا عن والده الشريف مولاي أحمد العباسي الذي يعود إلى الحي كل ليلة وبعد منتصف الليل مخمورا من الأملاح، ويقول إن اليهودية عزونة صاحب البيت الذي يسهر فيه في الدار وتأديهم بالرقاقة في عيد اليهود ويقول أنه يظن أن شفته قد فقدت بكارتها ويقلد لنا مشيتها

المفتوحة السائقين بعد أن تمر أمامنا عائدة من عملها كبائعة للدواء في الصيدلية البطحاة والعباسي، وإن كان لم يبلغ السابعة عشرة فقد بدات على خديه آثار الجروح، وبرز شيء من الصلع على جبهتها وكانوا قد بدأ يزحف، وكان العباسي يبعث رسائل حب لمحوبته ويكتبها أمامنا على ورق أبيض، وبعد أن شك سبابته بإبرة ويستحلب الدم ليكتب به كلمات الحب على ذلك الورق الأبيض، ويخبرنا بأن والده الشريف يمتلك أرضا واسعة في ضواحي فاس، وأنه صديق لمقيم العام الفرنسي يكره المواطنين، ويرى بقاء فرنسا في المغرب هو إلا توفيرا للمغرب الحماية، فلما أمسكني من زراعي قال:

– تعال ندخل هذا الدرب المسلمة.

فقالت:

– ولماذا؟

قال:

– لأننا سوف نمشي مسافة قليلة في هذه الدرب، وسنصل إلى مراكش.

قلت:

– ولكن مراكش بعيدة عن فاس.

فقال:

– تعال وستره في جامع الفنا فسوف نأكل اللحم ونرجع.

وتملصت من قبضة يده على زراعي فتفحص نظراتي بعينه حادة النظرات، وقال:

– ألا تصدق؟ كلها دقائق ونعود رأيت في عينيه التصميم وهو يجذبني إلى الناحية ذلك الدرب المعدم، وما مر أحد كي استنجد به، ولكن أمي أضلت من باب الدار وأخذت تنادي:

– عبد الحيد.. يا عبد الحميد.

فأطلق يده من زراعي وملأت سطل الماء من السقاية مشت به إلى الدار، وشيء مما به من الماء ينهرق، وببلل ساقي انحنت أمي على قصعة عجين، وعدت أقف في وسط الدار أنظر إلى ذلك الحلقة، ومن خلالها إلى السماء التي كان يعبرها الغيم، وحاولت أن أصعد مرة أخرى، ولكن ذاك لم يكن بإرادتي بل إنني قد أحسست بنفسي وأنا أتضاءل، وأخف في الأرض وهي صلبة لا تفتح لي مجالا للهبوط إلى عوالمها، وربما جاءتني الحاجة إلى ذلك الهبوط خوفا مما كان العباسي سوف يفعل به، وحتى وإن لم يفعل فقد أحسست بدناءة وبخل من نفسي، ومن حسن الحظ كان العباسي يغيب لأيام لا نراه فيها في الحي، وإذا ما عاده إلى الزهور فهو يحدثنا ونحن نجمع البيض اللقالق من أعالي الأشجار

في ضواحي المدينة، وعن السباحة في أنهار المحيطة بها وعن صاحب أخته الذي يظن أنه قد فعل بها الفعائل وسيلاحقه بطعن سكينة لن يعرفها من أين أنت، وعن كل الأشياء التي يدخلها عن الليالي والده في الأملاح مع اليهود والنصارى.

كان يخرج من جيبه ثلاثة ورقات من أوراق اللعب، ويعلمنا كيف نقامر ويستدرك أحدنا لتجربة وهو يوكد أنه سوف يجعلها يربح، يربحه بالفعل، وفي أشواط لاحق من اللعب كان يخسرها كل ما عنده من الريالات ولا يتركه يذهب إلا وهو بالدين.

في غيابه كنا لا نستطيع أن نذكره بسوء، مخافة أن يبلغه أحدنا بما قلنا فيأتي ليضرب رأس القاتل مع الحائط أو يوجه له لكمة تفجر الدم من أنفه، لكن خوفي منه تضاءل قليلا، ومع مرور الوقت وما عددة أتذكرها إلا وأنا أراه أمامي.

أخذت أشعر بشيء من الهبوض نحو عالم لم تنفنح لها أرض دارنا مع الصلابة ذلك الأيك المكون من مربعات ودوائر كانت زرقاء وبيضاء وصفراء، ثم بهت لونها في بعض الأماكن التي عليها الخطوة.

إليجات صفراء وبيضاء وزرقاء كنت أعدها في شروطي وأنا أنظر إلى تكامل الدوائر مع المثلثات والمربعات وتدخلها مع بعضها بإحكام.

هبوض لا إداري إلى أين كان يأخذني، ولكني كنت أحلم خلاله بعالم الجنيات وهو يأخذني من عالمي هذا الذي أحياء فيه.

الظلام هو الظلام والضوء قليل وماء وعينها تشعان في الظلام، والضوء قليل من عنيه البهيتن الأخاذتين، والظلام هو الظلام، وشعرها الفاحم السوداء الذي يخطي ما عداه وإن كان ما يظهر منه هو بياض العنق والصد الناهد.

هل هي تبتسم ليه؟

أنا ذاهب إذن وحتي وإن كنت لا أعرف السباحة فسأعوم معها، مثل سمكة تحت الماء، وستأخذني إلى القصر منيف فتكسوني وتطعمني وتقترب شفتي من شفتها، ويدها وتحتضنني بالعناق ورائحة جسدها مضمخة بالمسك والكافور والظلام لم يعد هو ذلك الظلام فكل أنوار العالم تتلألأ من عينها والماء الفت العيش في وسطه حتى نسيت أنني أعيش وسط الماء.

كنت أشتهي ذلك العالم السفلي وأخاف منه أتردد عليها في هبوطي، وأقترب من أسراره ومكموماته ثم أهرب منه وأنا مسعورة، وفي ذلك الهبوط أتذكر أن الوالد كان قد مات منذ عامين وقد ترك لنا ثلاث مطفيات في الدار الدبغ جاء من أقصرها لصباغة الجلود وهو يأتينا بين الوقت والآخر، ليقدم لأمي بعض أوراق المائة ريال ويترحم على المرحوم من غير أن يرفع نظره نحوها، فلمن سوف أترك أمي إذا ما أنا أخذتني جنيه من جنيهات العيش معها في ذلك القصر المنيف؟ وماذا سوف أفعل إن كان زواجها مني والعيش معها في قشور من الماء مشروطة بألا أطلب العودة إلى دنياي؟

انحنت أمي على قصعة العجين، وكنت أنتظر أن يتخمر لتطلب مني أن آخذه إلى الفرن، ولكني رأيت الدموع تطفر من عينيها وظننتها تتذكر المرحوم، ولكنها قالت يا وليدي يا عبد الحميد جدتك خرجت من شهر ولم تعد وهي أمي الحبيبة العزيزة لا أعرف ماذا تأكل، وماذا تشرب وأين تبيت، خرجت وما رجعت وأنا بحثت عنها عند الصلاح وأولياء الله في فاس كلها ولم أجد لها أي أثر وأنت يا وليدي يا عبد الحميد تخرج وتمشي إلى الطالعة أو فاس الجديدة أو تهبط إلى السطريين أو تنزل مع عقبة الفيران، وتصعد مع عقبة السبع علك تراها، ويمكن أن ترها، وقل

لها قالت لك لا خدوج بنتك العزيزة عليك تترجاك، ترجعي للدار وخذها بالخاطر الله يرضى عليك سر ولا تترك مكانا إلا وتبحث عنها فيه حتى تجدها وتعيدها إلى الدار، وأنا لا أعرف أين تبيت في المقابر أو في الزاوية سيدي أحمد النيجاني أو في زاوية مولاي عبد القادر الجيلاتي البرد والشتاء والعرا، وهي أمي الحبيبة وأنت رجل هذه الدار بعد أن مات المرحوم ولو لم يكن قد مات موت الله لكان النصارى قد قتلوه .

الله يرحمه كان وطني والدباغة أحبوه يخرجوه النصارى من المغرب وهو كان معهم عملوه منهم الفدائين، وكانت عندهم علاقة مع الفدائين، فالرباط والدار البيضاء ووجده، وفي كل جهة وعملوه المظاهرات ووقفوا لفرنسا شوكة في الحلق حتى الرصاص كان عندهم، وأنا كنت خايف ليقتلوه، ولكن مات موت الله حين جاء الأجل.

كانت أمي الحاجة زهور تعيش معنا في الدار وفي بعض الأوقات كانت تذهب عند أخوالي، ولكن ها هي خرجت ولم تعد تسأل عنها ولا أحد قال إنه قد رآها.

هي ما عملت لها بيدي ولا برجلي ولا بلساني مجذوبة وعقلها مخطوف وأنا ما عرفت ما تعمل، هي طلبت مني الباسبور باش كانت مشيت للحج، وهي مشت للحج، وأنا صغير قبل ما تتزوج، الله يرحمه وفين هو الباسبور؟ زمانها يا وليد كانت مشت للحج مع القافلة على الجمال وبقوا في القاهرة شهور، وهي كانت تتحكي لي على القاهرة وسيدنا الحسين والسيدة زينب وحفلة المولد، وهي ما تزال إلى أن تنطق بعض الكلمات باللهجة المصرية كما كانت تحكي عن مرسيليا التي قضوا فيها شهورا، وقد رأت فيها سوقا يباع فيه الثوم كما كان يكثر في المدينة الذباب، وكانوا يسكنون في حارة تسمى حارة الشرامطة كانت تقولها وتضحك، وتقول لم تعرف لماذا سموا هذه الحارة بهذا الاسم، وهي لم تر فيها الشرامطة، وإنما رأت سوقا يباع فيه الملح أكداسا أكداسا كان ذلك كله قد حدث في القرن الماضي، فهي تتذكر حكم السلطان مولاي الحسن وقبل أن يدخل الاستعمار للمغرب أما أنا فقد فتحت عيني وفرنسا تحتل المغرب، ولكن أبيها مات وإخواتها ماتوا الله يرحمهم أجمعين، قالت لي الباسبور يحضر دأبا من السند أو من الهند، وقلت لها ايم والله ما عندي ولا عارفة منين تحضره لك، وقالت لي هو في الصندوق الذي بقي عند سيد الهادي والصندوق بعد ما مات

سيد الهادي بقي عند ربيعة امرأته، وربيعة تزوجت رجل آخر ومشيت معه يمكن للرباط أو الدار البيضاء.

ويمكن قالوا لي لقضالة أو مازاكا قلت لها أيما فين غدي تلقي هاد لالة ربيعة وأنا ما عرفت فين صبت ريحها؟ وغضبت وعادتني وخرجت وما رجعت قم واخرج وابحث عنها في الثلث الخالي من الدنيا، ها هي فاس قدامك اطلع واهبط مع الطالعة من باب بوجلود حتى الباب الفتوح، وشف فين تلقاها يا وليد وغير تجيبها لي للدار تسخن الماء وتغسل لها عظيماتها ونسرح لها شعرها بالغساسول ونحني لها يدها ورجليها بالحنا على الله يذهبوا الشياطين.

وخرجت فطفت بالطرقات مشيت مع زقاق الحجر وذهبت إلى القطانين ووقفت عند باب مولاي إدريس واقتربت من الشماعين وعيني على النساء العابرات للطريق بجلابيبهن وشرابيلهن واللثامات تغطي الوجوه.

رأيت سحرا في بعض العيون واستوقفت نظري بعض الأيدي على ما هي عليه من بياض، ونظرت إلى القامات من الخلف أو من الأمام.

صـدور ممتلئـة وأرداف هـي أيضـا علـى ذلـك الامـتلاء، وتخيلت حرارة الأملامس فارتعش جسدي ورحت أتصور مكامن السري فسري في مكامني تيار من الدفء والحنين.

كنـت أشـم رائحـة الأنثـى فـي تلـك الطرقـات وهـي رائحـة أحتفظ بها حتى بعد أن أعود إلى الدار في أنفي أو في ذاكرة الشـم حتى وهـي تختلط فـي الشـوارع والطرقات بروائح التوابل والأطعمة وروائح أخرى، وفي الدار تأتيني رائحة الأنثى بأطياف نسـاء مكـتملات الأنوثـة، فكنـت أسـبح فـي بهـائهن وبيـاض أجسادهن وأقول لنفسي سأظل أبحث عن جدتي الحاجة زهور إلى أن أجدها، وحتى وإن وجدتها فسأظل متظاهرا بالبحث عنها لكي أرى ما أراه من فتن وسحر النساء العابرات للطريق وهن يأخذنني إلى حيث إني أين تقع خطاي وأين أنا.

وطال بحثي فنمت كل يوم عطلة دراسية أقول لأمي أنا ذاهب للبحث عن جدتي، فيجري الدمع على خديها وتقول لي سرا وليد الله يرضي عليك، وفي بعض أيام ذلك البحث كنت أعود متأخرا فلا تلومني على ذلك التأخير، وتقول عرفت أنك لم تجدها ولكن ابحث الله يرضي عليك.

وأقول:

– سألقاها بفاس كل شيء فيها معروف.

وتقول:

– أخشى أن تكون قد ذهبت إلى الرباط أو الدار البيضاء، بحثا عن ربيعة التي بقي عندها ذلك الصندوق.

– لا يا أمي. لا يمكن.

– وكيف عرفت؟

– هي كبيرة السن ولا تقدر على السفر.

– تقدر. أنت لا تعرفها. هي إذا صممت على شيء تقدر عليه.

– ولكن الدار البيضاء بعيدة.

– تركب القطار حتى إن تدفع ثمن الورقة وتطلب ضيف الله لأناس لا تعرفهم وهي امرأة مجذوبة لن يلومها أحد على شيء تفعله.

وطمأنها إلى أن جدتي الحاجة زهور لا يمكن أن تغادر فاس حتى تستمر في البحث ولكنها لم تطمئن. في تلك الليالي الباردة كنا نتعشى بصحن خليع فقس فيه البيض أو بالحريرة، وخلال تناولنا للعشاء كانت تظل تتحدث عن غياب أمها الحاجة زهور وتبكي وحتي مع بكائها وهي تتوقف عن تناول الطعام، فقد كنت أندفع مع شهيتي حتى آكل ما يكون لها جانب من الصحن، وأحيانا آكل كل ما في الصحن وهي لا تبالي.

مر الزمان فانتقلت للدارسة في القرويين وما تغير شيء من تلك الجولات في طرقات فاس التي كنت أزعم من خلالها لأمي ولنفسي أنني أبحث عن جدتي الحاجة زهور وما كنت أبحث سوى عن قضاء الوقت في التبه بين الطرقات، وأنا مأخوذ بسحر لنساء والصبايا والتملي بطلعاتهن وتأمل حركات مشيتهن وثيابهن والإصغاء إلى أصوات همساتهن أو ضحكاتهن المكتومة.

وأنا الآن لا أستطيع أن أسترجع ما كنت أراه ولا ما كنت أفكر فيه.

أصعد إلى باب بوجلود وأهبط إلى باب الفتوح وأسير مع كرنيز وواد رشاشة ثم أتجه نحو العشابين أقف عند باب المنزل أو عرضة من العرصات، وأتطلع إلى شباك أو نافذة على امرأة تطل فاراها وأتانس مع الصمت بعض الدروب، وعتماتها ولا يهمني مرور طوابير العساكر وينادقهم مسددة، حيث كان يقال إن الملك في المنفى والوطنين يعملون على إرجاعه إلى عرشه وكانت فاس سحابة سماوية لم أدر أكانت تظلني أنها كانت تحملني فوقها لأطوف معها، حيث تطوف وأسير معها في الاتجاه الذي تسير فيه وبقيت أمي مكلومة تنتظر من رجوعي إلى الدار أن أعيد إليها أمها الحاجة زحور.

مرة قالت لي ها أنت قد أخذت من العلم ما يكفي ألا تفكر يا وليد يا عبد الحميد في أن تأخذ مال أبيك الذي في الصندوق وتخرج لتبيع وتشتري صنعة دار الدبغ ما عادة تنفع في شيء وإذا ابتعدت عن طريق السياسة فسيفتح الله عليك بمال كثير اليوم الدنيا عيانة باكساد، وفي كل يوم يطلب الوطنيون من أصحاب الحوتنيت أن يغلقوها إعلانا عن الإضراب، وكل ما لم يغلق دكانه يسمونه خائنا ويخلطون ما في الدكان من طحين مع زيت الكاز والصابون مع الزبدة والخليع مع الجافيل والخونة الله وحده يعلم ما في قلوبهم وما كان يمكن أن تكون هناك حوانيت خاصة بإخوانه وأخرى خاصة بالوطنيين صار الناس يشترون الزيت والسكر من سطوح البيوت، ولكن شف فكر في أن تكمل هذا العام في القرويين وخلال أشهر الباقية تجد لك تجارة مناسبة دار الدبغ ليس لك ما تعمل فيها، افتح حنوتا تبيع فيها الثوب في القيسارية أو حنوتا لبيع الذهب في سوق الذهب وأنا أعرف أنك تحب كنزة.

ولكن الوقت لم يحن لكي أخطبها لك فاصبر حتى تستقر في التجارة، ويجري المال بين يديك ولن يخطفها منك أحد فعيني عليها وعلى دار والدها الجزار وأحث أن عينيها عليك ولن

يزوجها لغير من تحب هذا كان يحدث زمان، أما اليوم فالبنت تتزوج برضاها والعدول يسألونها هل توافق على الزواج والسكوت علامة الرضا.

كنت صغيرا وها أنا قد ذكرتني بأيامي كنت أضحك وألعب ولا ينقصني شيء في دار والدي الحاج الله يرحمه والدك الله يرحمه كان غزال رجل كامل بالطوال والعرض، وأنا كنت غزالة في الصغر تشوفني الغنم ما ترعى السالف جروبي والغد عقار وهو كان قد رآني في أيام الربيع ونحن نتنزه في حانة سيدي احرزان بين النخيل والماء الجارى.

أقمنا بعض الحواجر بالأرز والأغطية التي علقنها بين النخيل وفرشنا الحسر والزريبة، وأشعلنا النار في المجمر، وكان والدي الحاج الله يرحمه قد اشتراها من سوق الرصيف من حوات جاءوا بها إليها من واد سبو.

حوتة أنثى باتت في شرمولة والخل أحببنا قليها للغداء، وقلنا قد أحضرنا معانا البقول والخليع وزبدة اللبان.

ووالدي مع أعمامي خرجوا للعوم في الحامة، وأنا قلت أضع رجلي في ماء لواد الذي كان يمر بها النخيل رسما تتقد النار في المجمر، وفي تلك اللحظة رأيت من يمر أمامي يرتدي

بذلة رومية في قدمي حزاء عكر لامع، وبمجرد ما التقت نظراتي مع نظراته وقف وأخذ ويتأملني بنظراته، ثم مشي بين النخيل حتى غاب، ولكنه عاد يمر أمامي فنظر إلي وابتسم واحمر خداي من الخجل، فعدت إلى الغباء الذي نصبنا بين النخيل من الأزر والأغطية، وأنا أفكر في نظراته إلي وقد تفتح له قلبي، وإن لم أدر من هو وماذا يريد من تلك النظرات وذلك الابتسام تغدينا وخرج والدي الله يرحمه مع أعمامي إلى جمب الواد ليلعبوا الكرطة، وما جاء وقت العشاء حتى جاءت شابة طويلة مجردة تلبس جلبابا أصفر، فاقتربت من خبائنا وقالت:

– السلام عليكم يا ناس هاد المكان.

أطلت أمي من وراء الستار وردت عليها:

– وعليكم السلام ابنتى.

وقالت الشابة يمكن تعطوني شيئا من شريبة الماء؟

وقالت لها أمي:

– مرحبا ادخلي ما هو حد من الرجال.

ولما جلست أخذت تفحصني بنظرتها وهي تبتسم فقدمت لها شرب الماء، وبدا عليها أنها ليست عطشانة وبعد حين قالت لأمي:

– يالالة حبيت نعرف داركم في فأس الكلام مشي هنا والصواب يكون.

وسألتها أمي:

علاش يالالة؟

قالت:

– شسء خطأ يالالة لبنية الغزال ليديالكم.

وقالت لها أمي:

– الله يجعله مبارك مسعود.

وأعطتها أمي علامة الدار بالنعت والصفات، وهما مرت أيام حتى جاءت هي وأمها لخطبتي كانت هي عمتك يا واليدي قال لنا: شغل معلم دباغ ووالدي الله يرحمه قال أخشى أن يكون لباطا اللباط هو الذي يغسل الجلود من الدم، والباغ صنعته شريفة، وسأل عنه في دار الدبغ، فقال لها السيئ عبد الرحمن معلم دباغ، وسمعت حسني وهو من أخبار الناس، وما جاء الصيف حتى كنت عروسة، وأنا ماشفت معه غير الخير الله يرحمه، كان قلبه كبيرا، وكان مع الدباغة يريد أن يخرج فرنسا من المغرب، وفي كل عيد من أعياد العرش كان يذبح الذبائح وأنا أطبخ له المحمر والمقمر يأتي ليأخذ اللحوم إلى دار الدبغ وقبل يوم العيد كان يفرشون الأرض بالزرابي والحسر، ويزينون المداخل بجريدة

النخل وأضواء الحمراء والخضراء التي تنظم على شكل نجمة خماسية هي رائية المغرب، وأنا كنت لا أخرج من الدار، ولكن والدك الله يرحمه كان يحدثني عن كل ما يقع.

كانت بعض القنابل قد انفجرت والفرنسيون أعدموا بعض الوطنيين، وأخذوا آخريين إلى السجون والمرحوم كان يقول إلى الملك لا يعرفنا، ولكننا نعرفه ونحبه من القلب، وهذا الزمان الشدة وكل شدة لها فرج، وعندما يعود محمد بن يوسف إلى عرشه وتخرج فرنسا من البلاد سنفرح بالاستقلال ونبني هذا الوطن.

ولم أفهم من كلامه إلا القليل فكنت أشاركه في هذه الآمال حتى وإن لم أفهم منها شيئا سوى أن المغاربة لن يعود من بينهم خوانة أو طنيون ولك سيصبحون جميعا وطنيون ولم تغلق الحوانيت كما يحدث في أيام الإضربات، وأمي الحبيبة يا واليد ها أنت شايف خرجت وما رجعت وما عرفت فين نلقاها، وما جاءت غير تطل على في باب الدار.

مضى كل ذلك الوقت وجدتي لالة زهور لم يظهر لها أثر ولم تنساها أمي، فكانت كلما تذكرتها تبكيها بكاء بدموع حرقة وتقول ربما تكون قد ماتت وأنا لا أعرف قبرها حتى أترحم عليها

وأخوالي منشغلون عنها بتجارتهم وبنسائهم، وكلما طلبت منهم أن يبحثوا عنها يقولون أختنا هذا هذا هو حالها تقصد رجال الله أينما كانوا وتبيت في الأضرحة، وتأكل من طعام الفقراء وسيأتي يوم تظهر فيه فلا داعي للقلق، وكم من الحاجة قضيناها بتركها فكان لا يتحرك لهم حراك للبحث عنها وأنا قلبي يحترق، وهذه الدموع وإن كانت لا تنفع فهي تريحني وتخفف عن عذابى.

ما تخليت من عادتي في التجوال بين الشارع والطرقات والدروب حاسبا بين كل وقت وحين أنني سوف أراها ولم أرها.

تركت الدراسة في القروين وبدأت أتاجر في بيع الة سنجر للخياطة وهيأت محلا، فرحبت التبن قرب قنطرة الرصيف ومكثت في ذلك البيع والشراء لسنوات عادة فيها الملك من المنفى مع أسرته وبدأت سنوات الستينيات الأخيرة تفصح عن كلام جديد يردده أناس لم يرضوا عما كان قد جناه هذا الاستقلال للمغرب، مشيرين بأصابع الاتهام إلى الذين استغلوا المناصب والثروات وحققوا الأموال الطائلة في رمش العين، وبدأ التمرد داخل حزب الاستقلا ببوادر انشقاق عنه وتأسيس حزب جديد ثم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية لامع فيه اسم المهدي ابن البركة، كما اسم علال الفاسي وعبد الخالق الطريس لامعين

في وقت مضى، وزهرت حركة دول عدم الانحياز ونشط طيار الوحدة العربية بقيادة جمال عبدالناصر، كما لمع اسم زعمائه اسم مثل نكروما وموديبو كيتا وسوكارناو، وبدأت البلدان العربية والأفريقية تعرف طريق البحث عن اللذات بعض الاستقل السياسي، حيث ظهرت الحركات الداعية إلى التحرر الاقتصادي لمناهضة الغرب بعد فشل أمريكا في حربها للهند الصينية، كما تغيرت النظرة للرأسمالية العالمية، وبدأت الاشتراكية تجد طريقها إلى البلدان العربية والأفريقية، كان لذلك كله تأثير على البلاد، فبدأ البعض يشك في جدوى النظام الملكي، وكثرة الإضرابات التي تم بعدها اغتيال المهدي ابن بركة، وجاءت المحاولات الانقلابية التي باءت بالفشل.

تغيرت تجارتي من الة سنجر برحبة التين إلى بيع قطع غيار سيارات بشارع الزرقطوني بالمدينة الجديدة، وفي مقهى لارونسانس الذي كانت صاحبته فرنسية مدام انيط ماتزال موجودة كما كانت أيام الاستعمار كنت أشرب قهوتي الصباحية وأثرثر قليلا معاها حول الطقس وأخبار بعض الزبائن القدامى، وبعد ذلك صارت لي محطة بنزين وتجارت في كل شيء ولم أدخل لعالم السياسة إلا مع زهور حزب السي أحمد عثمان، قالوا حزب رئيس

سابق للحكومة ليس له شهداء ولا مقومون، وقال لي السي حمد نحن نؤسس لعهد جديد من الديمقراطية، ونناضل من أجل ذلك وامتلأت أفكاري بالكثير من الأشياء التي لم تغني عن تجارتي وإن كنت بحضوري في الحزب أقنع نفسي بأنني أفعل شيئا لهذا الوطن، وكنت قد تزوجت كنزة وأنجبت منها والدي زكريا دون أن أنسى يوما من الأيام صندوق المال والجواهر والدمالك والخواتم الذي كان والدها الجزار قد أخذها وستعرف كيف وقع ذلك فيما بعد، فأنا أمام آلة التسجيل هذه لم أستطيع أن أرتب كل ما حدث حسب الزمان والمكان، وأن أقصي عليك الحوادث في حينها فهذا شأنك أنت.

يمكنك أن تعجن كل هذه الأشياء وتصورها صياغة جديدة، ولكن لم تحذف شيئا في هذا الكلام إلا بمشورتي وإن أرادت أن تزيد عليها من كلامك فلك ما تشاء عليه إلا تقول عليه وها أنت تراني عليك الطريق حتى وصلت إلى النقطة أصبحت أرى فيها لا جدوى مما أحكيه، فما عدت قادرا على الإمساك بتلك الأوقات الحرجة التي عشت معها قسوة الذهاب في تلك الجهات، وكل ما كنت أريد أن أحكيه ليس هو قصة حياتي أنا، وإنما قصة توغل

الكائن في كيونتني وهو يكتشف الجهات، ويمضي فيها فأوقف ذلك الشريط قليلا لكي أعيد ترتيب ما أود أن أقول.

الأشياء كلها تبدأ هكذا بسيطة ولكنها سرعان ما تتعقد وأنا أختصر لك في الكلام وربما أتعرض لحوادث لا تهم في شء ذهاب الكائن نحو الجهات فكيف يمكنني أن أحكي لك كل شيء دفعة واحد وهل الكتاب الذين يكتبون الكتب يكتبونها دفعة واحدة؟

لا أعرف ولكني أيها الكاتب قد رأيت الكتاب الذي أنت بصدد تسجيل مادته وهو يكتب أمامي دفعة واحدة في ليلة الفندق تلك التي كنت قد زارتني فيها لأول مرة واستعصى على الكلام.

عجبت كيف لا أعرف من أين أبدأ الآن وأنا أشاغلك وأشاغل نفسي بهذه الحكايات التي ليس فيها شيء مما أريد أن أصل إليها فكأني أحوم حولها من غير أن أتمكن مما أقول شيئا ذا فائدة ما يوصل جهة من الجهات.

ألم أقل لك أن الجهات تتداخل حتى لا يبقى من شيء يحد بين الجهة والأخرى؟ وإذا كان كل ما كان قد كان، فما

الحاجة إلى هذا الكلام؟ وهل يمكن استرجاع التفاصيل الضائعة أن يمضي طريق للوصول إلى الجهة بعد أن أعبر إليها إلى كل الجهات؟

ربما ولكني أستوقف هذه البدايات وأخشى ألا تكون لها نهايات محتملة، فماذا علي أن أفعل ومن ين تبتدأ الحكاية؟

خذ كأسك وأجبني عن سؤال من هذه الأسئلة، فربما بخبرتك في الكتابة تلهمني الصواب، اضغط على زر آلة التسجيل وتابع معي وحتى وإن طال بي الصمت فيمكنك أن تمحو ذلك البياض.

جاء يوم خرجت فيه من الدار وما قطعت خطوات حتى رأيت أناسا يسحبون التراب والردم من خرابة ويضعون ما يسحبونها على الظهور الحمير، ولما تأملت هيئتهم وجدتهم ليسوا البناءين أو مستخدميهم فثيابهم حسنة والطرابيش الحمراء على رؤوسهم وعجبت كيف أنهم لم يستدعوا من يقوم بإخلاء تلك الخرابة من أتربتها وما تراكم فيها من أزيال ثم سمعت أحدهم وهو ينقض الغبار عن طربوشه وثيابه، ويقول:

– نطلب الأجر من الله.

ورد عليه آخر:

- الأجر مقبول عند الله.

وقال آخر:

- الحمد لله الدنيا ما يزال فيها الخير.

كانوا من أهل الحومة والحومات المجاورة تجار وصناع واحد عرفته، وهو معلم نجار وآخر كان يبيع الأثواب في القيسارية ظل يحمل البالة مليئة بالتراب ويغرقها في الشوارع الذي كان على ظهر الحمار وبعد أن خلت الخرابة من الأتربة تماما وتسوت أرضها رشوا الماء وكتبوا المكان مما تبقى من أتربة ثم رشوا ماء الزهر وأحرقوا البخور في مباخر محاسية أتوا بها من أحد البيوت، وجاءت حمر تحمل على ظهورها الحصر والزرايي فبسطوا فوقها الزرايي، ووضعوا مخدات للاتكاء هنا وهناك، ومنهم من رش الطريق بالماء ومنهم من كنسه وقال أحدهم وهو يلتفت حواليه:

- شوفوا أسيادنا نسينا الجير.

فقال آخر:

- ما وقع بأس.

- ولكن كنا سترش الحيطان بالجير لتبيض القلوب.

- القلوب بيضاء والحمد لله.

- ياسيدي نهار مبارك هذا.
- أيام الله كلها مباركة.
- تأخروا لعلهم قادمون؟
- ما زال ولكن قرب الوقت.

وطافوا بالمباخر تفوح منها رائحة عود القماري، ومنهم من كان يخرج العود من جيب سرواله، ويضعه في المبخرة وبعد حين ظهر شيوخ وأطفال يرتدون ثياب الصوف الخشن وفي أيديهم الدفوف والبنادير أدوات الدق التي لم يبدوأو الدق عليها بعد فاصطفوا على جانب من الطريق، منتظرين إلى أن جاء عميات يقودهم عور أو بعض المبصرين وعرجان يتكثون على عصي ومجاذيب تخثر البصاق على جنيات أفواههم وأخذ الرجال الذين نظفوا الخرابة يجلسومها صفوفا وجاءت أمة سوداء هي الأولى بطبق كبير من الفخار مغطى بغطائه، فاحت منه رائحة الدجاج المحمر، ثم تبعتها خادمات البيوت بأطباق مغطاة ربما كان بها كسكس بالبصل والزبيب أو لحم مشرمل، وظهرت كنزة وهي تحمل الطست، ويده فأخذه منها أحد الرجال، وحاول آخر أن ينزعه من يده، ولكنه قال وهو يتمسك بما في يده:

- سيد القوم خادمهم.

فقال له الرجل الآخر:

– حاشاك الشريف.

وانبعث من بين الجماعة رجل وأمسك بالطست ويده، وقال

– ياسيدي بحال بحال كلنا من آدم وآدم من تراب.

ومقتنى كنزة وهي آتية من دارهم بطبق، وقد أثقل عليها فحاولت أن أحمله عنها، ولكن أحد الرجال كان قد سبقني إلى ذلك، وبعد حين جاءت تحمل طبقا آخر، وقبل أن تصل إلى مكان التجمع اشارت إلى براسها ان اتي اليها وتوقفت عن الخطوة ولما اقتربت منها وهممت باخذ الطبق خطفت لثمة على شفتي في غفلة من رجال وبقينا نمسك الطبق معا حتى تخلت عن إمساكه وعادت تجري إلى دارهم ووضعت أنا الطبق، حيث كانت توضع تلك الأطباق ونشوة فرح تغمرني، ولكنها عادت تحمل طبقا ثالثا فما حملني ارتعاش ركبتي على أن أقترب منها ولما تلقفه منها أحد الرجال قال لها:

– الله يخلف سلمي على الوالد.

فقالت:

– هو جاي لعندكم.

وبمجرد ما انسحبت قال رجل وقور.

- جزار كريم وابن كريم.

وقال آخر:

- الجزارون يغثون في الميزان ويعطونك عظيمة فوقها لحيمة وهم يتعثون بالسقط ولكن السيئ...

فقاطعه ذلك الوقور:

- يا سيدي الله يخلف عليه وصافي ها هو جاى.

ومن رأس الدرب ظهر والدكنزة وهو قادم يرتدي الجابادور والسروال القندرسية، وعلى رأسه عمامة شالاشاكر فسلم على الرجال ودعوه للجلوس، وقبل أن يجلس سلم على العميان والعرجان والمخبولين وقبل أحدهم على رأسه وهو يتبرك به ولبعد مكان وقوفي ما كنت قد سمعت ما دار بينهم من كلام واستعجلنا الرجال لتناول الطعام قبل أن يبرد فأردت أن أعود إلى دارنا، ولكن أحدهم أمسكني من يدي وأجلسني بجوار الجزار، وقال هذا الولد الدباغ الله يرحمه ولو كان والده حيا لكان معنا، ولكن هذا الغصن من تلك الشجرة والشبل من الأسد، ونظر إلى الجزار نظرة خاصة فاحمر خداي من الخجل ولم أدر أهي تظرة ما كان قد قاله عنه الولد العباسي أم هي نظرة أخرى نبعث من إحساسه بأني قريب من ابنته كمزة وتوانيت في الأكل، فكان يقدم لي

أفضل قطع اللحم واحدة بعد الأخرى فقبل أن آكل الواحدة يكون هو قد وضع أخرى أمامي على حافة الصحن، ورأيت ذلك الشريف الذي قدم للناس الطست ويده ليغسلوا أيديهم يجالس العميان والعرجان على نفسي المائدة ويطعم مخبولا فلي فمه والطعام لا يستوي في فم ذلك المخبول ورفع من ذلك الطعام الشيء الكثير الذي فاض عن حاجة الطاعمن، فقدم لبعض الفقراء الذين كانوا قد تجمعوا حول المكان، وعاد ذلك الشريف يقدم للناس الطست ويده ليغسلوا أيديهم، وعبقت من المباخر رائحة عود القماري، كما سمعت من يقول:

وبدأ إنشاد المداح النبوية والشطح والحيرة واختلط الناس ببعضهم، وكانت ثمة نساء يطللن من سطوح المنازل وفي ذلك الزحام رأيت جدتي لالة زهور هي وكيف لا أعرفها؟ ترتدي قفطانا رماديا لم تضع عليه الجليان، ووجها سافرا من غير لثام فكأنها قد خرجت من الدار للتو، وكانت تمسك بولدين صغيرين واحد بيدها البعض والثاني بيدها اليسرى، وتقدم نحوها أحد الرجال وقبل يدها فقالت له:

– لم يخبرني أحد بشيء ولكني سمعت.

وقال:

– مرحبا لالة الحاجة نهار كبير هذا.

وأسلمته للوالدين اللذين ظهرا كمختونين يرتديان الجابدور والبدعية والمنتسال وطربوشين مطرزين من وبر أخضر على رأسيهما وهما كدميتين لا تطرف لهما عين، فلما اقتربت منها ورأتني قالت لي:

– ويلي يا ويلي يا عبد الحميد يشوبني فيك.

فقبلت يدها وقلت لها:

– لالة توحشتك فاين هاد الغبية؟

فقالت:

– أنا هنا قريبة من الدار أراك كل يوم وأنت لا تراني.

عجبت لكوني أبحث عنها كل هذه المدة وهي قريبة مني من غير أن أراها كما قالت وظنت كلامها محمولا على سبيل المزتح أو على سبيل مما يمكن أن يكون قد أصابها من خبل تمسكم بها فأخذت تتفحصني بنظرتها وقالت:

– إش أخبار يماك؟

وقلت لها :

– لا بأس، ولكن هي تبكي عليك بالليل والنهار لالة.

فضحكت وقالت وهي تحدث صوتا مما بين شفتيها:

علي أنا؟ الله يبقى الستر.

وعادت تفحصني بنظرتها وقالت:

– سبحان الله لسانك يتقطع بحلاوة السكر بحال باك الله يرحمه، ويماك لسانها بحال الفلفلة السودانية.

وتركتني فدخلت في الشطح، وغابت نظرتها ومع ارتفاع إيقاعات ذلك الدق بدت وكأنها سوف تتهاوى، وسرعان ما أغشي عليها فأرحوا جسدها على الزربية وأسندوا رأسها بوسادة فاقتربت منها، ولكن أحد الرجال نحاني بحركة زاجرة من يده، وفكرت في أن أقفز قفزات لأصل إلى الدار وأخبر أمي، ولكن خفت من أن تنهض من تلك الغشارة فتختفي قبل أن أعود إلى المكان ومعي أمي لالة خدوج فبقيت عيني عليها وقلت لأحد الرجال.

– الحاجة لالة زهور هي جدتي تأخذها إلى الدار.

وبدا وكأنه لم يسمعني حتى ظننته أطرش، وكررت نفس الكلام على الرجل الآخر، فلم يبال حتى توقفت الحيرة مع آخر دقة فنهضت جدتي واقفة، وقالت:

– فين هما الحسن والحسين؟

فأسلمها أحد الرجال إلى الوالدين اللذين تأكد ليه من تشبههما ومن اسمهما أنهما توأمان، وبعد أن عبقت رائحة الشاي بنعناع الجنانات جاء كل من كان قد جاء بأطباق الطعام بصحون الكعكة غزال وغريبة وحلويات أخرى، وجاءت كنزة بصحنة، ولكنها تحاشت النظر إلى ولما امتلأت الطريق بالهرج والمرج فقد وقف من الرجال من جعل من نفسه منظمة، وما حرم أحدها من كأس الشاي مع غريب أو كعب غزال وبعد حين وضعوا صندوقا فارغا في وسط ذلك المكان غطاؤه مقلوب على ظهره حتى يظهر فارغا ووضع فيه أناس عدة أوراق من مائة ريال أو مائتين، ومنهم من وضع في الصندوق ورقة الألف ريال صحيحة، وتقدمت نساء بوضع بعض اللويزات الذهبية في الصندوق، ووضعت نساء أخريات دمالج وأقراطا وخواتم، وتقدم الشريف فوضع في الصندوق عدة أوراق من ألف ريال، وتقدم الجزار فأخرج من جيب صدريته عددة أوراق لألف ريال ووضعه في الصندوق، وكانت عيني على جدتي فأخرجت من صدرها منديلا ملفوفا وفتحت عقدته وأظهرت ما بالمنديل من خواتم من الماس، مرصعة ووضعته في الصندوق، وتقدم أطفال ربما كان آباؤهم قد أنابهم عنهم لتقديم الهدية، فوضعوا في الصندوق أوراق المائة ريال أو مائتين ومنهم من وضع فيها خلخالا أو قرطا ذهبيا ومقاطرت

قطع اللويز الذهبية على الصندوق تبعا، فوقف الشريف ومن كان معه من الرجال وقال:

– الله لا يضيع الأجر.

وقال ذلك الوقور.

– سنبني في هذه الخرابة ملجأ خيريا إن شاء الله للمكفوفين والمعثورين، تبارك هذا خير كثير.

وتهامس ذلك الرجل الوقور مع الشريف، حيث أشاح الشريف عنه واعترض برسم حركة، واجتمع الرجال وتهامسوا فيما بينهم حتى ظهر الخلاف على سحناتهم وحركانهم، وأخيرا أسلموا الصندوق وما فيها للجزار ليبيت عنده إلا أن يباع كل ما فيه من الذهب والفضة والجواهر واختلوا فحصوا عدد النقود، وسجلوا كل التبرعات في ورقة احتفظ به الشريف وجدتي لا لها ظهور لفتت عيني عليها وهي تمسك بالتومين بيديه، وتتابع الإحصاء والتقييد وقالوا:

– الله يخلف والله يجزي أجر المحسنين.

وبدا الجمع ينفض فاقتربت من جدتي وقلت لها:

– لالة آجي معايا للدار.

أمسكت بالتوأمين وقالت:

– أنا مشيت مع رجال الله، وأشارت نحو السماء وقالت لي:

- قل لأمك تحضر لي الباسبور من السند أو من الهند.

وقلت لها:

- يا لالة والله ما هو عنها.

قالت:

- وحتى بلا ضاع أنا ما بقات عندي حدادة رآها الحدادة بين المغرب والجزائر إما أنما نمشي فأين ما حبيت.

وتوسلت إليها وأمسكت بطرف قفطائها الرماني ويداها ممسكتان بالتوأمين فقالت لي:

- فأين تستقرا؟

وقلت لها:

- في القرويين.

وقالت:

- تبارك الله على ولد الدباغ يمكن تخرج العالم قاضيا أو حتى عادل، ولكن يمكن ما تخرج إلا مخلخل بالدمياطي والشيخ خليل.

وسكتت وهي تنظر إلى السماء وقالت:

- ويمكن موقت جهتك هي الأفلاك والنجوم.

ثم قالت لي:

– سر وقل لها أنا جاية، فالوقت اللي تحب ماشي دايا.

وفي تلك اللحظة اختفت لا أدري كيف وما بقيت أمام عيني سوى تلك الحركة التي كانت قد رسمتها بسبابتها نحو الجهة من الجهات لم أتبينها، وها قد وجدتها بعد بحث عنها في الدروب والطرقات وها هي تضيع مني فماذا أقول لأمي؟ ظننتها بقطائها الروماني تولي بالدبر فتبعتها، وما وجدت سوى طيف خيال يشبه هامتها في الطول وانسدال سالفين من حرير أسود كانت تخلف بهما سالفيها القدمين، وقد ظفرتهما على نفس المنوال ولا أدري كيف اختفي التؤامان معها فقد كانت يداها في يديهما.

قالت لي أمي:

– وماذا كانت تلبس؟

قلت لها:

– القفطان الروماني.

بهتت وقالت:

– يا وليدي القفطان الروماني ها هو ما يزال في صندوق ثيابها، وهي خرجت من الدار بجلباب شعر الجمال تلبسه كانت تلبس قميصا أخضر.

ونهضت إلى الصندوق ففتحته وأخرجت منه القفطان الروماني وقالت لي:

– أهو هذا؟

فقلت:

– هو يا أمي ولكن كيف يكون هنا في الصندوق وأنا رأيته بعيني تلبسه؟

ثم سألتني:

– والتؤامان؟ من هما؟

قلت:

– لا أعرف.

وجلست تضع يدها على خدها فأعادت الدموع تظفر من العينين، ولما حاولت أن أهدئها قالت:

دعني أبكي وأفرج عن خاطري بالبكاء.

ثم عاد إليها هدوأها وبدت سارحة تفكر وقالت:

– والمنديل الملفوف الذي قلت إنها قد أخرجت منه خواتم لضمانة والدمالك والمرصعة من أين جاءت بها؟

وقالت هي أمي وأنا أعرفها كانت لا تحب وضع الخواتم في أصابعها وحتى عندما كان المال كثيرا فهي لم تكن تشتري

خواتم، وكانت لا تذهب للسوق الذهبي والفضي، ولا تريد أن تقترب معي من ذلك السوق فتستميلني إلى باب مولاي إدريس لنشرب من سقاية باب الوفاة، وتتصدق على الفقراء بما يرضيهم وأكثر، ولكنهم يلحون على المزيد من العطاء ويطلون في الدعاء لها وهم يمكثرون من حولنا متزحمين فياحصروننا وكادت روحي تزهق من فرق ذلك الزحام الذي لا سبيل لنا للخروج منه، ونتصبب عرقا، وهي معطيهم إلى أن ينقضي ما معها من المال، ولكنهم يكثرون ويسدون علينا الطريق، وقد ركمونا وأخذوا يزاحموننا بأجسدهم ومناكبهم نساء ورجال وأطفال، وأنا أختنق وأكاد أسقط من دوار أصاب رأسي وهي تظل تتوسل إليهم أن يتركونا نشرب شربة الماء ونذهب وتقول لهم:

– نهار آخر.

ويأتي فقراء آخرون من جهة الطريق ليغلقوا ما نفذ علينا أنا وهي، وأولئك الفقراء الذين كانت قد تصدقت عليهم فتقول وهي تبتسم:

– نهار الخميس إن شاء الله.

وبشق الأنفس نخرج من ذلك الازدحام وفي الطريق تقول لي:

- لو كان بإمكان الإنسان أن يتصدق بمال غيره لكنت أخذت منك تلك الفلوس التي كنت تنوين ان تشتري بها من السوق الذهب خادما أو سلسلة ولكن ذلك لا يجوز.

وأقول لها:

- يا يما وحتي لو أعطيتهم مال قارون هل سيكفون عن التسول؟

فتقول:

- هذا أمر الله يا بنتى.

وقالت أنا يحيرني أمر هذا المنديل الذي فكت عقده، وأخرجت منه الخواتم والدمالك، فهل عثرت عليه في الطريق أم انها كانت تخبئه في دار أخوالي في حومة عين الخيل وهل ذهبت إليهم؟

أنا سأذهب إلى الدار أخوالي وأستكشف ما تفعله أمي من وراء ظهري، وإن كنت لا أحب هؤلاء المتدللات في الكلام التقيلات الحركة، فلا يقدمن كأس شاي مع غريبة بالسمن إلا بعد طلوع الروح، وهن دوما متزنيات كأنهن في حفل يخطون بين الغرف بتكاسل وتمطيط شفاه عند كل الأحلام عادي وأعرف أنهن جميعا لى:

- والله ما عرفت حبيبك الحاج هو اللي عارف.

والأخرى ستقول:

– حبيبك الحاج مريض بالسكر، وإذا كانت هناك مشكلة فهو لا يقدر على المشاكل.

والأخرى ستقول:

– حبيبك مسافر وبعد عشرة أيام راجع بالسلامة.

والأخرى ستقول:

– الحاج ما عنده خبر بهاد الذهب يا لالة خدوج، والله ما عرفت منين جابته الحاجة لالة زهور.

هن أربع نساء يا وليدي يا عبد الحميد متزينات باليل والنهار يلكن العلك كما يلكن الكلام، وأنا أقول لك هذا لتعرف أخوال أمك، والموت والحياة بيد الله، وأنا سأذهب إلى حومة عين الخيل، وسيعرف أخوالي كل شيء إن لم يفسر لي واحد منهم من أين جاءت بها الحاجة زهور بذلك الذهب فاجعله يسأل هذا السؤال مثلي، ويبحث عنها في كل هذه المدة التي غابت فيها عن الدار؟ قلوب الحجر يا عبدالحميد ما بقيت إخوة، فهاد الدنيا وأنا لا أخ لي ولا أخت وأنت يا وليدي يا عبد الحميد وحيد لا أخت ولا أخ لك.

وما مر يومان على ذلك الحفل الذي عقده رجال الحومة في تلك الخرابة، وكنا قد دخلنا في الهزيع الأول من الليل، ونحن نيام حتى صحونا على صوت يشق الحجر يصرخ في الدرب، ويقول كلاما غير مفهوم، ولما رأتني أمي نهض من فراشي على شعاع قليل من ضوء الأدارج الذي نتركه يبيت مضيئا تهضت، وأضاءت ضوء الغرفة وقالت:

– هذا العباسي راجع من الملاح.

واقترب من باب دارنا الصراخ المخمور، فقالت أمي:

– شرب الماحيا مع اليهوديين.

ثم قالت:

– لا طريق العباسي لدارهم ليست من دارينا أشكو هذا؟

وصعدنا إلى السطح الدار بأغطيتهم نحتمي من البرد القارس، فرأينا الجزار يندفع نحو حائط ثم يدفعه ذلك الحائط نحو الآخر، وهو يصرخ ويردد مثقل اللسان.

– أنا ما عندي صندوق ما شفت حتى شيء صندوق.

وأحسسنا بحركة في البيوت المجاورة مع أن ظهر لنا من أضوائها في هذا الهزيع من الليل، وعرفنا أن كل سكان الحومة قد نهضوا من منامهم وهم يسمعون ما يقوله الجزار.

ثم ما مر شهر حتى أخذت الناس يتحدثون عن الجزار الذي أصبح يملك عدة حواتيت لبيع لهم في سوق الرصيف والطالعة وفي أحياء أخرى من أحياء فاس، فقد أصبح تاجر جملة يزود تلك الحواتيت باللحم، ويضع فيها من يبيع تحت وصايته وبعد شهور سمعنا أنه يشتري العجول وقطعان الغنم، ويزبحها في الجزارة ويبيع اللحم لتجار الجملة، فتحيرت في أمر حبي لكنزة، وقررت أن أتخلى عنها، ولكنها كانت تتسلل قافزة على حيطان سطوح المنازل في بعض الأماسي، وترمي إليّ بحجر وكنت أصعد إلى السطح للقائها لا تسمح بالقبلة، وتباعد ما بيني وبينها إن أردت العناق، ثم تقفز على تلك الحيطان وتعود إلى سطح دارهم فأبقى حيران، ذاهبا في أخيلة تأخذني إلى ما لا أتذكره بعد أن أخرج منها وبعد وقت صارت تأتي قافزة على الحيطان، وتدخل معي غرفتي التي على السطح وتجلس على فراشي ناظرة، وهي تبتسم ولم أقترب منها تنهض خفيفة بنفس تلك الخفة التي تتصلق بها الحيطان، فلا أراها إلا وقد أصبحت فوق السطح تراهم، وكانت تدرج رائحة الأنثى في غرفة السطح تلك فأبقى في حيرة وزهول، وما كنت أقدر على مصارحتها بما فعله والده بالصندوق، وكنت أقنع بألا ذنب له غياب والده لأمانة أهل الحكومة وما تبرعوا به من البناء، ذلك الجهة الخيرية، ولكن

غصة كانت تقف في حلقي وما كنت أدري كيف يمكن أن أتظاهر مع الجزار، ولكن ذلك قد حدث من غير أن يكون له قرار.

وفي ذلك الصباح سمعنا طرقا عنيفا على باب الدار، فنهضت أمي وقالت:

– شكون؟

وازداد الدرج حتى قالت:

– أنا جاية أفتح الباب.

ولحقت بها نحو باب الدار فلما فتحته رأينا أناسا يحملون جدتي بين أيديهم ودخلوا مسرعين يبحثون عن أقرب فراش يضعونها عليها، ولولت أمي وجدتي الحاجة لالة زهولر مسجاة على فراش في باحة الدار، وكان طائر قد هبط من الحلقة، وحاول أن يصعد للخروج منها، ولكنه عاد يهبط نحو دربوز الفوقي، ناقرا من خشبه وقافزا هنا وهناك وصرخت أمي:

– ماتت؟

فقالت لها أحد أولئك الذين جاءوا يحملونها بين أذرعهم:

– الدوام لله.

ولطمت أمي خديها وحلق ذلك الطائر في فراغ الدار من غير أن يصعد نحو الحلقة، ونظرت أنا إلى وجه جدتي فكان مشربا بحمرة الدم ورف جفنها واستوت جالسة، وقالت:

– خذوه قلبي وفتشوه فليست فيه خواتم ولا دمالج.

وبهنت أمي وانهالت فوق جسدها فانسحب أولائك الذين كانوا قد حملوا جدتي، وقالت أمي وهي تقبل يد جدتي:

– دعيني أقبل اليدين فأنا أشم فيهما رائحة الجنة.

وعاد ذلك الطائر يحاول الصعود فصعد، وأنا أخف حتى صرت ريشه في جناحه، وبدا الهواء يتلاعب بي والطائر يحلق ويصعد وينزل هابطا، ليقف عند قفص فارغ من الطير كان معلقا على مسمار على الجدار باحة الدار، محاولا أن يدخل ذلك القفص الذي كان بابه مغلقا وليس به ما يغري ذلك الطائر من زئان بالدخول لا تسألني عن ذلك الطائر، هل غدا في صعود أم هبوط، وأنت لن تقدر على أن تفسر لي كيف صار جسدي على تلك الخفة، وكأنه قد فني وما بقي إلا إحساس غامض بوجوده كما لن تفسر لي كيف اختفت جدتي وهي أمامي، فهي أسرار الجهات وخفاياها فأوقف الة التسجيل الآن ودعني أستريح.

والآن وقد أوقفت جهاز التسجيل قل لي ما الذي يجمع ويفرق بين هذه الجهات جهة الجزار، وجهة جدتي لالة زهور وجهة ذلك الطائر، وإذا أحببت أن توضح لي أكثر أيها الكاتب فما الذي يجمع أو يفرق بين الجهة كنزة وجهة العباسي وجهات الدباعين وجهات سطوح المنازل، وما يسمع فيها من أذان وجهات فاس الأخرى، ولن أسألك عن جهاتي أنا، فهي موضوع هذا الكتاب الذي أصبح يبدو لي ألا موضوع له، وأنني بالدخول في الكلام عن أناس عرفتهم إنما أبحث عن موضوع فمن كان يصدق أن جدتي ستموت مبتتين لتعود من ميتتها الأولى، وتعطنا قلبها لتفتشه ومن كان يدري أن الجزار سيخون الأمانة وأنني سوف أتزوج كنزة وأغرق معها في الوحل ومن كان يظن أن حروب السياسة سوف تنتهي إلى كل هذه الجراح؟

هب الريح

للمكان أسرته النيرة
بنيران الحرائق
أو بما
كان يقطنه من سراب

ظلت معلقة في الفراغ كدمية مربوطة من أطراف خفية بخيوط لا مرئية ترتدي فستناها الفضفاض الطويل الأحمر ذا الذيول المنتشرة حول أطرافه السفلى، وكانت تلك الذيول تتشعب مع حركة الرقص وتذهب بالفستان ويكنزه نحو هالة من الفراغ كبير يصير أكبر من اتساع الصالة وانفتاحها على متسع من مرافق الفيلا وانحائها وكل ذلك يقع تحت أضواء خلابة وكانت في مهرجان.

ولم أدر متى كانت كنزة تعلمت الرقص على هذه الطريقة ولا متى خاطت ذلك الفستان فقد جاءتنا بخروجها من غرف نوم والدها، حيث اختفت هناك لبعض الوقت ثم خرجت وهي ترتدي ذلك الفستان، وأخذت ترقص وأنا بالرغم من زواجنا الذي مضى عليه سنوات لم أتمكن من التحقق من أنها هي كنزة إلا بعد مضي وقت، فالألوان التي اصطنعت منها زينة وجهها والبقع الزرقاء على اليمين وتسريحة الشعر كلها ألقت على شكل كنزة ظلالا غامضة، مما جعلها تشبه إحدي راقصات الفلامينكو أو مهرجة في سيرك، وكل هذا إلى بإضافة نظرات عينيها وتعلقها بالفراغ الذي بدا الجسد نفسه معلقا فيه، وذهاب تلك النظرات نحو غياب ذاهل مجنون جعلني أنها سوف تنهار، وتبكي في منتصف الرقص

أو ستمزق ذلك الفستان على جسدها، وتخلط ما تكلف من أصباغ على وجهها، ولكنها ظلت ترقص ووالدها يبتسم لي وزوج أختها نعيم يركز نظراته على صدرها وحركات جسدها خلال الرقص وعيناه تلمعان.

عجبت كيف ترقص الآن وهي التي ظلت تنكد كل لحظات الفرح بكلمات جارحة كأنها كانت تخبئ تلك اللحظات أوبانزواء نحو حزن غامض ما كنت أجد له من أساب مما يجعلها تنكس نظراتها لأيام، ولا تحب أن تخرج من غرفة النوم التي كانت قد صرفتني عن دخولها بصفة نهائية، وما كانت تمشط شعرها وتتزين إلا حينما أدعوها للعشاء في أحد المطاعم، فتشترط هدية ثمينة مقابل ذهابها معي وتقول إنها هي التي سوف تختار تلك الهدية فافتح دفتر الشيكات ولما أهم بكتابة الرقم تقول لي وهي تضع يداها على القلم أنت وقع وأنا أكتب الرقم أنت كنت حقا تحبني وتريدني جليسة لك على مائدة ذلك العشاء الذي دعوتني إليه، وأحيانا ينتهي ذلك الموقف الذي وضعتيني فيه إما أن أتجاهل كلامها فأكتب رقما محترما على الشيك وأسلمه لها فترده لي وتقول أنا لست طماعة، ولكن أريد أن أستمتع بأموال زوجي، وأما ينتهي الموقف بإلغاء دعوة العشاء ولو حدث وذهبنا إلى

المطعم فهي تستعجل عودتنا إلى الدار لكي لا تضيع منها حلقة من أحد المسلسلات التي تشاهدها من تليفزيون غرفة النوم، وتطلب مني ألا أدخل فلو كان العشاء والشيك شرطا في أن أعود للمبيت في غرفة النوم لما كانت قد قابلت.

ظل والدها الذي يمسك بيده المتشنجة الحركة على حافة كرسي الإعاقة، وهو يتأهب بنظراته لاصطياد نظراتي حتى يبتسم لي ويدعوني من الاقتراب من أذنه ليهمس لي بأنها الآن ترقص فرحة بنفسها وبزوجها فلا داعي للقلق أو التفكير فيما لاتحمد عقباه وما هو أبغض الحلال إلى الله تعالى، كما قال نبينا الكريم، ثم يقرص أذني ويقول لي افرح بامراتك يا عبد الحميد كنزة غزالة شف ها هي فرحانة بك وبالعائلة.

وقفت على قدم ثم وقفت على رؤوس الأصابع أمالت عنقها ونشرت هالة التوب حول جسدها.

ودخلت الهالة الكبيرة التي دخالنا معها فيها فصار البيت كله كلاما ونظرات نحو والدها، وبدا لي وكأنني لا أعرفهما وتبدد من ذاكرتي ما كان يجمعني مع هؤلاء الناس، وهذا البيت وتمنيت لو كان بإمكاننا أن نستمتع بالراحة التي يقدمها لنا النسيان فما بقي شيء من ذكري كنزة يفرحني أو يخلج جسدي

ويذكر عواطفي أو يشعرني بحاجة الرجل إلى احتماء دافئ بامرأة تعيد إليه توازن نفسه ومواقفه مع تقلبات يومي وألاعيب السياسية، ومع من يفتعلون عدوات لا أساس لها من أساس الصراع، ولا عيب أن يجد هذا العقل المكدود راحته في امرأة هي ألفة وشقيقة روحه، وهي هدهدة اليد التي تبعث في تعب الجسد الراحة والهدوء، ولكن امرأة محتملة تأتي من الأخاليل هي التي يمكن أن تفعل ذلك، ولربما تأتي من الطفولة أو من صحراء هذا العمر وانهيارته.

لو نسيني كل هؤلاء الناس ليصبح بإمكاني أن أتاكد من أن كنزة قد صارت شبحا غريبا كما أن روحا غريبا في مكان جلوسي هنا في الصالون، كما أنا غريب في مكان آخر من أهمها مكاني الأول غرفة النوم، رقصت أمام نعيم فملاء نظره من عينيها وجسدها وقبل ذيلا من تلك الذيول الثوبية، وهو يمسك به فأعاق حركة رقصها وكادت تسقط وتجاهلت أختها بشرى أن تري شيئا من كل ذلك، ولكنها التفتت نحوي وقالت لي:

– هل يمكن لأحد أن يرقص بغير موسيقى؟

فأبديت امتعاضا وقلت:

– مجنونة.

عض نعيم على طرف سبابته، وقال لزوجته التي لم تكن تسمعه:

– آه لو كنت ترقصين لي لفرشت لكي الطريق بأوراق المائتي درهم.

بدت أنها حقا لا تسمعه، وهي حالة بعالمها الذي لم أستطع أن أتكهن به، فنهض نعيم وهو يضطرب في مشيه، وعاد يحمل في يديه كأسين شرب من أحدهما، وسقى صهرنا من الكائس استقبلتها شفتاه وأشار بعينيه ونظراته إلى مزيد حتى فرغ الكأس، وقد كانت مترعة في جوفه وحومل وحوافل وتجشأ، فقالت له حماتي:

– أما كفاك ما شربت يا حاج في أيامك؟

وقال لي نعيم:

– أنت تعرف كيف تصب من تلك القارورة في كأسك فاتركني اسقي نفسي واسقي الحاج.

وسقاه بكأس آخر قربها من شفتيه، فجعل منها الحاج حليب رضاعة، وكأنها ثدي أمه أو مرضعته، وصار نعيم في تلك

الليلة مرضعا له وهو نهم لذلك الحليب الذي كان قد تعود على الرضاعة منه من قبل.

رقصت كنزة من غير توقف وقالت حماتنا:

– ها قد تفجر داء السكري، وجعل إحدى قدميه تنز وتنتفخ باستمرار.

فأراد زوج ابنتهما العزيزة أن يسكتها عن هذا الكلام فأتى بقارورة عطر، وأخذ يرش منها على عنق وثياب حماتنا العزيزة، ثم قال:

– هذا عطر رجالي.

وذهب إلى مكان وعاد بقارورة أخرى ورش منها على عنق وثياب وراحتي يد صهرنا العزيز، ثم قال:

– آه فقد أخطأت، فهذا عطر نسائي.

واقترب مني ليرش من ذلك العطر فاعترضت بحركة من يدي واقترب من زوجته فاعترضت، وقالت:

– أنت سكران ولا تميز بين عطور النساء وعطور الرجال.

وقال لها:

– هما سواء.

وضحكت كنزة وهي ترقص فأخذ يلاحقها وهو يرش عليها من القاروتين معا وضحكك وصهرنا كيخ كيخ كيخ ...وظلت بشرى كأنها غير موجودة تصرح بأفكارها متجاهلة رقص كنزة الذي بدى مضحكا، وطيش زوجها الذي أخذ يقبل يد صهرنا من الوجه والظهر ثم يقبل يد حماتنا وهي تضحك وتقول له:

– هكذا يكون أولاد الناس.

جاءت تقترب مني بجسدها الراقص فتجاهلت أن تلتقي نظراتي مع نظراتها، وظل والدلها ينظر إليها ويبتسم بغباء، وقد احمرت وجهها وانتفخت عروقها، وقال:

– على كل شيء تروح القارطة مشحرين إيما فين أصحابي وفين هي الليالي أنا مشيت وتقاضيت.

وقالت لها حماتنا:

– باسم الله عليكي باقي دارنا تعمر بالأصحاب والخير.

ولما جاءت ترقص أمام والدتها شدت على وسطها حزاما وضحكت، وحاولت أن ترقص جسدها التخين وهي جالسة وأخذت كنزة تميل وتدور، وتلك الهالة نفسها تتسع لتخيفها، وتخفي البيت كله في دوامة من الفراغ، فاختفي وجه والدها الجزار المقعد، واختفى نعيم واختفى معهم ماكان في يدي من

كأسين مترعتين، واختفت الفيلا التي كنا نسهر فيها كما اختفت المدينة والشوارع والمحاكم والسجون والحانات والمطاعم، وما عدا سمة سوى نار، وكانت تلك النار تأكل جسدين رجل وامرأة، وقد التف في آذار كان أبيض ثم تفحم وتدخن فما عاد يتقلب في الفراغ سوى الجسدين وقد شممت رائحة الشياط.

تأملت تلك النار، وقلت، أنا رجل سياسة وعضو قيادي في حزب مهم فما معنى أن يكون سبب تلك النار هو هذه الأمور الخاصة جدا التي لا تعني أكثر من ثلاثة أشخاص، بينما يحتمل أن تشتعل حرائق أكبر لتأكل الوطن كله الذي يحتاج إلى كواطنين مخلصين لهم تحيطتهم اليد وأحدها يمكن أن تبعث الوطن كله من الرماد لا كرماد؟

عاد زوج نعيم يضحك ضحكاته التي ما عاد من ورائها أو أمامها شسرء تأكل عظام تفحمت وبدءت تنصر، فهل النار تشتعل في الفيلا أم أنها تشتعل في المدينة والوطن أما أنها تشتعل في عيني نشيد وحيدا وسط الحقول، وتذكرت شيئا من أوقات صباي يوم كنت أنتمي إلى الكاشف الحسنية، وكان شعارنا الكشاف دائما مستعد وسألت هل المغارة فرأيت التي كنا قد

دخلناها عروق وجذور في تلك الجهة السفلى من العالم.فكيف يسير الكائن في تلك العروق والجذور؟

وما أدراك فهي قطرات مائية تنزل من بين صخور الصقوف فلا هي بيضاء حليبة ولا هي من دم دم أم أنها حليب؟

لكني كنت في تلك الفترة من الطفولة أتخيل الدم والحليب كما هي قريبة مني في الجهة التي كنت أحيا فيها، وأما اليوم فيظهر أن الحليب يمكن أن يختلط بالدم كما تتداخل الجهات مع بعضها، ولعلك تراني أخرف أيها الكاتب، ولذلك تنظر إلى بهذه النظرات المندهشة وإذا لم تفهم ما أقول فكيف سوف تكتب الكتاب؟، أعني كيف تسرد مدته التي أحكيها لك على هذا السجل وتعطيها المعنى أو المعاني الملتبسة ببعضها كما هي الجهات تتلتبس؟

كيف؟ أنت تتلذذ مبهورا بما أحكيه لك وأنا لست واحدا من رواء الشعبين ولا صاحب رسالة ولا فيلسوفا ولا شهيدا ولا ضحية، وإنما أضمن لك في هذه الأشياء التي أحكيها بما يمكن أن يعنيه الذهاب نحو الجهة إلا أنك تبدو ومن نظرات عينيك كأنك لم تفهم وكأني لم أقل.

ولعلك لم تدرك غاية الكلام معك في هذا المسجل أو حتى بدونه فهذه الأشياء التي أحكيها ليست سيرة شخص اسمه عبد الحميد الدباغ، لأن السيرة عادة تكتب للعباقرة والأنبياء، وما أنا إلا واحد من الذين عبروا الجهاد، وأقول وصلت للجهة السابعة، فما يهم قارئ الكتاب من أنا كنزة رقصت أم لم ترقص أو أن ذلك الطائر أراد أن يدخل قفصا فارغا لا هواء فيها ولا ماء فيها؟حتى لو وصفني نعيم بما أراه، وكان صوابا أو مجانيا للصواب، فذلك لا يعني شيئا كما يعني أمر المغارة التي تكون لها جذور وعروق فيسافر الأرض، وإنما أنا ألف وأدور حول الكلام لكي أصل لما أريد أن أقول، وأصف لك كيف يذهب الكائن في الجهات مشينا بجراج لا يرى له أثرا على جسده ولو كتبت ذلك الكتاب الذي أردت أن أدون فيه أحلامي لكان أسهل مما أريده منك الآن، لأنها جهة واحدة أو هي جهات الست وهي التي كانت تذهب تلك الأحلام، ويمكنك أن تحذف هذا الكلام من الكتاب فهو غير فائدة للقارئ.

وكي استأنف في حماتنا في براحت ذلك اليوم قالت:

سوف أحترق ذلك الخروف الذي وضعناه في الفرن، وأنا ذاهبة في تحضير العشاء وقالت لها كنزة:

يا أمي أنا لم آكل سوى قطعة من ذلك الطحال المحشو.

قالت لها حماتي:

– لماذا يا كنزة؟

قالت:

– الخراف المشوي في الفرن ما عاد يتلذذ، وحبذا لكان بابا يبيع البيصارة ولم يكن يبيع اللحم.

ثم نظرت إليه وأضافت:

– ولو كان عبد الحميد هو يبيع البيصارة لكان ذلك أحسن من عشات المطاعم.

وقالت لها حماتى.

– أنتي يا كنزة تنكدين علينا في كل شيء، وقد تطبعت بهذا الطبع من زوجك الذي يخوض في أمور السياسة.

ضحك نعيم يردد بصوت مائع:

– السياسة السياسة.

وقالت حماتي:

–كل الناس الذين يخضون في السياسة يحبون النكد، ولا يفرحون بشيء ولو كان زوجك لينسى الهم بنسيانه معه، ولعشت ضاحكة وأنت كالورد تتفتح.

شهقت كنزة وتدللت، فقالت حماتي:

– فلماذا صار وجهك منطفئا وبدأ شعرك يتساقط؟ ها هو نعيم ضاحك لاعب وقبل حين كان يقلد لنا زقزقة العصافير.

وقال له الحاج:

– دع السيئ عبد الحميد من لسانك فهو في ضيفتنا ولو كان قد نجح في الانتخابات للبرلمان لكانت معه الحصانة، وما قد رد عليه أن تطيل لسانك معه في الكلام، وهو سينجح في الانتخابات القادمة، وإن كان النكد فهو نكدك أنت فمن ذللك اليوم الذي عرفتك فيه وأنا صحتي عيانة، وخاطري مكبوت سبحان الله العظيم حتى الضحك مع صحابي نسته من بالي.

أبدت غضبها وانصرفت لمراقبة نضوج الخروف في الفرن، وطلب الحاج مني أن أقترب منها وأمسك بأذني وقال لي:

– يا والدي يا عبد الحميد امرأتي هبلة والكنزة امرأتك هبلة.

غضبت كنزة وانصرفت فتبعها نعيم وعاد الحاج يقول:

– اصبر كما أنا صابر وها هي ابنتك العاقلة.

وأشار إلى بشرى أخت كنزة التي كانت تسمع كل ما قال وقال لي:

– أنا أتذكرك يا عبد الحميد وأنت صغير والدك سليمان الدباغ، كنت أعرفه لا كجار ولكن كصديق، وحبيب وكما لعبنا من ضروح القارضة، وكما شربنا من البوخة في جنان السبيل، وها نحن نستمع إلى غناء السيدة أم كلثوم تسطح من الميكرفون سكتت لحظة، وقد بدى عليها أن يتذكر، وقال كانت داركم قرب التوتة في دارك البشارة ودارنا غير بعيد عنها، وأنت لا تتذكر ذلك اليوم الذي احتفل فيه سكان الحي بالفقراء، فكلنا معه وشربنا وأطعمك بيدي واقترب نحو جهتك نحو أفضل قطعة اللحم هل نسيت؟ جدتك الحاجة زهور الله يرحمها تبرعت بخيط الريح، وكان من اللويز الخالص وبخواتم من الديامان، كما تبرعت أنا بالمال في سبيل الله، ولكن أذهب الآن إلى دار بشارة وستجد أن تلك الخرابة قد ارتفعت فيها عمارة من أربع طوابق ولا أثر للملجأ الخيري الذي كنا قد تبرعنا من أجل بنائه، أحد أولاد الحرام كان قد أخذ صندوق التبرعات، وأنكر فكنا الحلف على من ادعى واليمين على من أنكر، وحلف باليمين على أنه لم يأخذ معه ذلك الصندوق، وجاء الشهود وشاهدوا على أنه قد أخذوا رغم حلفه باليمين، ولكن القاضي فض القضية، ويقال إن ذلك القاضي لم يفض القضية حتى ولو قد أخذ رشوة كبيرة، ولكن وصية من

جنرال الفرنسي الكبير قد جعلته يسكت أهل الحي واليوم صارت هذه الأحداث التي عشانها من قبيل الخرافات.

كنت أنت صغيرا لا تدري بهذه الأمور، تلعب في الدرك وتراني أنظر إليك فتخفض بصرك سبحان الله، فمنذ ذلك الوقت تمنيت لك كنزة هي بالذات، ولم أفكر في أن تكون أختها بشرى، لا لأنها كانت أصغر من كنزة، والإنسان لا ربما يولد الإنسان ومعه امرأته التي سوف يتزوجها في عالم إلى أن يخرج ذلك السر للوجود، فلما جاءت تخطبها لم أفاجأ، وإنما كنت أنتظر ذلك اليوم، وقلت هي الأحداث التي يخبر القلب بوقوعها، وها أنا في هذه العربة أنظر بعيني وأحتاج من يضعني على السرير ولا أصحاب ولا أحباب.

وقالت لها بشرى:

– يكفيكِ ماقلته من كلام.

وأخذت تدفع بي العربة نحو باب الصالون ثم قالت لي:

– تعالوا نخرج إلى النهر وأطراف الغابة.

فجاء نعيم يتسلم منها العربة، وأخذ يدفعها وحول النهر اخذ يشير إلى الاقاعي النابتة وسط الزرع ثم أشار إلى السماء وقال له الحاج:

- أنا ملفح بطيطانتي وعليك أن تخاف من برد الماء على نفسك وعلى امرأتك.

التفتت نعيم نحو كنزة وقال لها:

- أنت أيضا تخاف عليك من برد النساء.

وفي الضيعة انتشرت الحرائق التي رأيتها تأكل الأشجار وأعشاش العصافير والدخان الأسود يتصاعد، وقلت هل أنا منظر بشئون وبلاد تستعد لخوض تجربة الديمقراطية، فما معنى أن يحترق الخروف في الفرن وأرى وكل الغابة تحتترق فهل أنا سوداوي إلى هذا الحد؟

وكان سمة في أحد غرف الضيعة جسدين عاريين يتداسران بإزار أبيض يتقلبان داخله والنار تأكل أطرافه، فسمعت أن في سيارة إطفاء ولم أدر جاءت لإطفاء نار جسدين أم لإطفاء نار الغابة أما لإطفاء نار التي أكلت أعشاش العصافير؟ ولعلها نار القلب ونار هذا الوطن.

ستكمل تلك النار في الضلوع لتسير لها جهادها وهي واحدة من تلك الجهات.

وتصور أنني قد أفلست في تجارتي عدة مرات، وكنت أبدأ من الصفر، وكم من عدة مرة أفكر في بيع الفيلا وشراء شقة نسكنها حتى أبدأ برأس مال جديد، ولكن الظروف لم تكن تعاكسني دائما فالتعامل مع البنوك وبيع مواد لم أشتريها بعد كنت أعود إلى الوقوف إلى قدمي، وكان ذكريا ابن الصغير وحبيبي يشجعني إلى نظراته إلى حتى هو لم يدري ما أنا فيه ولم يتعلم الكلام، فخلال أشهر أو على مدار سنة كانت أحوالي المالية تعد أفضل مما كانت ثم تأتي بعض النكاسات وأنا لم أكن أعبد المال، كما أنني أبذرها تبذيرا، ولكن جاء الوقت الذي طلقت فيه كنزة، وتخليت لها عن الفيلا وما فيها من أساس وفضلت الإقامة في هذه التي نحن فيها الآن أن أنظف ثيابي في المصبنة وأنتاول وجباتي في المطاعم.

كانت كنزة قد أغمضت عينيها وأنا الآن أتذكر ذلك الاغماض الخفيف وحلما تزاينت أرسلت خصلنا شعرها في الفراغ حتى تسترسل رأت أنها قد نزعت خاتم الزواج من بنصر يدها اليسرى، ولم أقل شيئا فتركتها تمرر قلم العكر على شفتيها

وتزمهما قليلا، وهي تنظر إلى مرآة ثم تضع الرداء المطرز الأحمر علـى كتفيهـا وكأنهـا سـوف تـدخل أو خـرج مـن مقصـورة مـن مقصـورات عـالم ألـف ليلـة وليلـة، ولكنهـا كانـت ذاهبـة معي إلـى مطعم الشرنقة.

بعد أن شربت كأسي الأول نهض الأصلع من مكانه وأخذ يتهامس مع الوسيم الذي ظل يخلع نظارته من عينه لينقر بها على المائدة عدة نقرات، ثـم يعيدها إلى عينيه، فيعود ليخلعها، لينقر بها تلك النقرات، ولربما كان في تلك الحركة سرا يعرفه صاحباه فقد تحفزا ولـم ينتظرا في هـذه المرة أن يمـد صـاحبهما يـده إلـى كأسـه، فافرغـا كائسـهما في جوفيهمـا، وصـارت نظراتهمـا عدوانيـة ومتحفزة وبدا لي كأنهما سوف يكشفان عن نديهما أمام ناظري الأصـلع الـذي كـان ينحني على أذن الوسـيم، ولكنـه عـاد يتراجـع نحو مائدته لتجرع كائسه مضطربا ثم رأيته يقف ويفتش عن شيء فـي جيـوب الجاكتـة البنيـة التـي كـان يرتـديها مـن جيـب لجيـب، ويتظاهر بافتقاد شيء ويعود للجلوس والسيجارة لاتفارق أصـابعه وهو يتمم بكلمات غير مسموعة ورأيته يخبئ زجاجة بيرة مختومة بغلافها فلم أدر هل كان ينوي أن يغالط محماد في حساب عدد زوجات البيرة أم أنه يخبئ هذه البيرة المختلسة لوقت عصيب، وحينمـا نظـر إلـى متوقعـا أننـي قـد انتبهـت إلـى مـا فعـل تجاهلتـه

بنظراتي ولما عدت أنظر إليه قد كان يدخن بحرقة وقد احمرت عيناه وبدا عليه السكر.

المرأة نفسها التي نظرت فيها كنزة إلى زينتها ماتزال مكانها في المطعم، فهو لم يتغير، ماتت مديرته الفرنسية كما أخبرني محماد والأصص التي تتدلى نباتتها على حواف نوافذ ماتزال في مكانها والأباجورات والموائد والكراسي وحتى محماد أخذ يتطلع إلى وجهي كلما أتاني بكأس، وكأنه قد تذكرني بالصور الوحيدة التي نشرتها صحيفة الحزب كانت منذ ترشيحي للبرلمان، وكانت تغطي كل الشوارع ووجهات المتاجر والمحلات، ووقتها طلبوا مني أن أخطب في الناس ولكن الناس كانوا يعرفون ما سأقول كما أعرف أنهم في أعماقهم لم يصدقوا شيئا مما سأقول وأنا على استعداد للتصفيق بمجرد ظهور أمامهم، ولا أتذكر كيف خرج الكلام من فمه، وجدت رأس الحزب الذي خرج من رئاسة الحكومة لتأسيس حزبنا ونظرت في لائحة الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت مطبوعة على ورقة الترشيح في يدي أصابني الشرود، فأخذت أتحدث عن الجهات الست وتواريخ ذهاب الكائن في تلك الجهات، وأن جهاتنا إلى الأمام والوراء الإمام والوراء معا، وشعرت أنني قد أخذت أقول كلاما لا يفهم، والناس رأيت في عيونهم هو ذلك الاستفهام الغامض

وعدت أمسك برأس الخيط، فتكملت عن ترأسنا المجيد، أنه يجب أن نحافظ عليه، ويجب أن نتخطاه وأن أمامنا إصلاح كل الأعطاب التي أصابت قطار تمانيتنا، وصفق الناس وبقيت في صوتي خطة تلك الجهات التي لم أتحدث عنها كما كنت أرغب، فذلك خارج عن كل ما كانت تبشر به ورقة الترشيح من إصلاحات، وجاء بعدي من تحدث عن اللون لون الترشيح حزبنا، ومضت الأمور، ولكن هل ذاكرت محماد حفيظة إلى هذا الحد؟ ففي تلك الليلة لم تكن لي شهية للطعام وأخذت كنزة تنظر إلى صحتها، وتدق على حافتها بالشوكة والسكينة دقا خفيفا ولم تأكل سوى أن يمكن أن يأكله الطير، أشعل الرجل الأصلع ذو الأظافر الصفراء سيجارة وكانت الأخرى موضوعة على المنفضة، وظلت عيناه زائغتان وهو يأكل من الصحن الذي أمامه ويدخن ويشرب ، ثم نهض واقفا وأخرج من جيب جاكتيه بعض الأوراق وراح ينظر إليه نظرة غشيمة فميلها على جانب، ويميل معها نظرة مائلة على جانب واحد، ثم يرفع عيناها نحو السقف كأنه يبحث عن ضوء قريب يسعفه بالنظر، وعاد يجلس فتناول قطعة اللحم أخذ يلوكها في فمه بحركة اخترق لها فكاه يمين ويسارا، وتماضتت شفتاه ومسح بالمنديل عرقا أخذ يتصبب على جبنيه هذا الطقس البارد الذي لا يعرق فيه أحد، وعاد ينهض ويهمس

في أذن ذلك الرجل الوسيم زي النظارة الشفافة وجالسة يتحفزان بالنظر، وحركات الزراعين وتحريك عجزاتهما على المقعدين وهو لا يبالي بتحفيزهما، بمجرد أنه عاد إلى مائدته أخرج الرجل الوسيم هاتفه المحمول وركب بعض الأرقام وسمعته يقول:

– ألو أنت معايا؟ عشرين مليونا.

– تقول عشرين هل سمعت؟

– تقول ست ماتلعبش معايا هاد اللعب وأنا عارفك.

– شف إن تتعشي في مطعم الشرنقة والسيد جاي بعد شوية.. قلت لك عشرينا، وما ترد حتى كلمة بالسلامة.

أقبل جالسها على ما تبقى من طعام في صحيانهما وهما يتطلعان إلى نظراته الساهمة، وهو يغط على الورق بعض الحسابات والأصلع يتتبع كل ما يحدث وهو يحرق السجائر وينفس الخون في الهواء، واقفا وجالسا وداعيا محماد ليطلب برتين وقد امتلأت مائدته الزوجاجات الفارغة فطلب من محماد أن يأخذها وكان قد خبائا في جيب جاكيتته ثلاثة بيرات ممتلئة، ولما أخذ محماد القورير الفارغة طلب شريحة لحم ثم قال لها صافي بلاش، وكلما أدار محماد ظهره ذاهبا إلى كان يناديه يقول له جيب الكالامار أو جيب الإسكالوب، ثم يقول له صافي بلاش

ومحماد متكبر أن يذهب أو يجي ونهض خرجا فظننته ذاهبا إلى المرحاض، ولكنه عاد وفي يده باقة ورد وضعها على مائدة فارغة في ذلك الركن القصي، فتفطنت إلى أنها هي تلك المائدة التي سيجلس إليها ذلك الذي سيأتي يحسب مكالمة الوسيم وقال الأصلع:

– ماعندوش الورد هنا.

فلم يرد عليها أحد فقال:

– أنا جبته من قلعة مكونة.

وضحك الوسيم ولم يضحك جليساه ونظر الأصلع إلى مستجدبا ضحكة فلم أضحك، وتجاهلت نظراته وظل يشير إلى محماد الواقف عند المدخل وإلى باقة الورد وهو يضحك ومحماد لا يضحك.

في تلك الليلة أصاب كنزة مغص مفاجئ فأخذتها إلى دورة المياه تحت نظرات محماد، وهي تمسك بذراعي وكانت لي تأكل شيئا مع استحالة إفساد الأطعمة في هذا المكان، وكانت قد نزعت رداءها الأحمر فشد فستانها الحلبيي على جسدها حتى بدت تقاطيعه لنظرات الزينة التي أحسستها تتبعنا من الخلف، وتشككت في أن يكون قد أصابها المغص فأنا أعرف خروب

بـلادي وبعـد عودتنـا إلـى البيـت أكلـت تفاحـة وغيـرت ملابسـها بثياب النوم أقبلت عليها وقلت لها:

– والدي ماكان يجب أن يعرف ما بيننا من أمور الفراش، وأنت قلت له.

– ولكن أنا منذ شهور طويلة لم أفعل ما يفعله الإنسان مع زوجه وليس في معاشرة أخرى خارج البيت.

وعادت تعترض، وقالت:

– هذا شأنك اخرج من غرفة النوم، أنا سأنام.

ولكني جلست على حافة الفراش ورأيتها وكأنها قد هدأت من ذلك الهيجان فطعمت في أن تغير قررها، ولكنها قالت لي:

– مسكين نعيم.

فقلت لها:

– ماله؟

– له خصية واحدة.

– وكيف عرفت؟

ارتبكت وبدأ عليها التلعثم، ثم قالت:

– أختي قالت لى.

– وماذا يهمك الآن من خصية نعيم؟

– بشرى حامل.

– مبروك.

– واجب أنا اسالك هل يقدر رجل بخصية واحدة على أن ينجب؟

– اسألي أختك.

– أنت لا تحب أن ترد على سؤالي اخرج ودعني أنم.

واستعدت لحظة الجسدين الملفوفين في إزار أبيض وقد بدأت ان تأكل أطرافه النار وأنا أنزوي في مكان نومي الأعزل، وبعد حين دخل المطعم رجل مشعكك الشعر أسمر يميل إلى مشيته إلى شيء من العرج وهو يتكئ على قدم اتكاء خفيفا ولم يمنعه محماد من الدخول، فقد أوسع له بالرغم من مظهره الرث، وهيئته التي توحي بأنه بائع باليانصيب أو سجائر مهربة وفي وسط المطعم وقف وقفة مسعك الشعر وقفة مسرحية وهو يفتح ذراعيه، وقال بصوت عال:

– الكوميسير جاء.

ونظر الأصلع إلى المائدة التي في الركن القصي وإلى باقة الورد وسارع الوسيم إلى هاتفه وأخذ يقول:

– شف تأكلها بالزاوية أو تنقيها.

- ماعندناش الوقت.
- قلت لك عشرين مليونا.

كان والدها الجزار يأتي بأكباد الخراف والطحال البقر المحشو العشاء ما بعد تلك الطروح المشحطة من الكارطة، وقد أصبح صديق المحامين والأطباء ومسئولين كبار في العمالة يستقبلهم في بيته بعد السهرات التي تضاء فيها الثريات الكبيرة المعلقة في السقوط صالات الفيلا، ويبدأ لعب الورق وما يصاحب اللعب من نكات وتعليقات صاخبة وأحاديث في كل شيء، وأحيانا كان يدعوني لحضور تلك السهرات ملحا على في أن أتعرف على أصدقائه، وأن أتناول العشاء معاهم فكنت أحضر من غير أن أشارك في اللعب وكان بعضهم لا يتحرجون من وجودي وهم يحكون بعض النكات الخليعة أو هم يلقون بكلام في السياسة على عواهله، وكان قد تعلم فنون الحديث في كل شيء فأخذ يشارك في أحاديث الحديث وأخذ يقول لي على مسمع من أصحابه الحزب الجديد ووراءه الأموال، وأنت لا تريد منك غير أن تحمر وجوهنا وكلنا معاك حتى تصل إلى البرلمان، وكانت تأتيني بعض التطمينات من أولئك المسئولين الكبار في العمالة مبشرة بنجاحي في الانتخابات التي كانت على الأبواب،

ولكن رغم الدعاية والجرابة الأموال في الحملة لم أصل في البرلمان ولم أعد أحضر تلك السهرات وتغيرت علاقتي بكنزة، كما تغيرت علاقتي بنفسي، وما عادت لي امرأة أخبئ بين حناياها جسدي الجريح حتى جاءت تلك الليلة التي أردت فيها أن أحسم من أمري، والدافع لذلك الحسم أن زكريا ما عاد يطيق أن ألاعبه، وأخذ يتبرم مني بعد أن سممته كنزة وملأت صدره عليا بالحقد، وبعد أن داريت ما كنت ألقيه منه من جفاء، وقلت لنفسي الولد صغير ولم ينس محبتي له بهذه السهولة، ودونما سبب أخذ يأخذني من يدي حتى يصل بي إلى باب الفيلا، ويطلب مني أن أخرج فلا أعود مرة أخرى، وأقول له:

- أين سأذهب؟

فيرد على:

- في الخلا.

وأقول له:

- ستأكلني الذئاب.

ويقول: تأكلك.

وحاسبت نفسي هل فعلت ما يمكن أن يغير من محبة زكريا لي، فما وجدت سببا غير أن كنزة قد أوغرت صدره على فغرفته

مليئة وباللعب، وأنا آخذه معي إلى الجولات والنزه والمسابح وإلى ايفران وقتما يكون ثمة ثلج وأعشيه معي في المطاعم، وما كان ذلك رغبة في تدليله، وإنما كنت أستانس به في وحدتي وفراغي فكان لي أليفا ومؤنسا وصديقا فما كنت اتوقع منه غدرا ولا مجافاة ولا طمعا في المال فأبوح له بكل مكنونات النفس وما ظننته ينقل كل ذلك إلى أمه، فقد أحسست أنه يتوضأ معي على تلك الأسرار إلى أن بدأت أعرف من كلام كنزة أنها على دراية بما كنت أكاشف به الوالد في بعض لحظات الضيق، وكأني أكاشف نفسي لما جاءته بلعبة غالية الثمن، وتركته يلعب بها حتى شبع من اللعب استدرجه للكلام، وقلت له:

– زكريا لماذا لم تعد تحبنى؟

فقال:

– لأن ماما لا تحبك.

وبدى عليه الغضب، وقال لى:

– هناك خذ هذه اللعبة والعب بها أنت واخرج من الدار.

فكما أخرجتني كنزة من غرفة نومي ها هو الولد يريدني أن أخرج من الدار، فماذا بقي لي سوى أن أبحث عن نفسي الضائعة في جهة من الجهات؟

وأنا في هذه الليلة في مطعم الشرنقة أستحضر كل هذه الأشياء، فما كانت أظنهم من البزناسة وقد دار الزمن ورئيس الحكومة آخر خرج من رئاسة الحكومة ليؤسس هو الآخر حزبا ربما سوف يحظى بالأغلبية والأحزاب الأخرى بعضها يقاطع الانتخابات وبعضها الآخر يلعب مع وزارة الدخلية لعبة القط والفأر.

الصورة التي كنت قد علقتها على الجدار عند محل الفيلا، حيث كنت أظهر فيها مع السي أحمد أحمد عثمان، وهو يضع يده على كتفي لم آخذها معي إلى الفندق النخيل هذا الذي نحن فيه الآن، ولعل كنزة قد نزعتها عن ذلك الجدار وهو نفس الجدار الذي وقفت عليه وهو بيني وجرة بعد أخرى، ويلبس ويطلي بأضلعه بالصباغة نفس الجدار، فلقد كان ما كان وتركت لها الفيلا بعد أن بدأت أفترض أن زالزالة قد هدها، وخرجت منه ناجيا لأقنع نفسي بقبول تلك الخسارة.

علمتني التجارة أن أفرح بالربح وأن أتوقع الخسارة محتاطا بوقوعها كما كنت من وراء الإقامة في غرفة هذا الفندق أعلم نفسي الاستغناء عن مظاهر الترف التي لم تعد لي بالسعادة.

وكنت أقول لنفسي ماذا لو اتجننت وأقدمت على الانتحار أو لفقوا لي تهمة قادتني إلى السجن المؤبد أو الموت في حادث سير، ألم تكن كنزة سوف تبقى في تلك الفيلا لتعيش فيها؟ ألم أكن لأتمني لنفسي شيئا لذلك، ولكن بدافع اليأس كنت أفترض بعض الافتراضات، وأقول ما كان بإمكان إخراج زكريا من البيت الذي ولد فيه فيما يلي حاجة في هذا البيت بدونه، سيما وقد قطعت على نفسي عهدا بألا أقع في حبائل امرأة وألا أفكر في الزواج.

وفكر معي أيها الكاتب هل كنت على خطأ أم على صواب.

ما أراه الآن هم يتناظرون ويوشوشون بعد أن أخذت المائدتين تقتربان من بعضهما، وغدا مشعك الشعر يهدي من روع الوسيم، ويطلب من الأصلع أن يكف عن الوقوف والجلوس الذين لا معنى لهما وهو يضع يده على صدره متحمسا مكان إخفاء زجاجات الجاكيتة الداخلي، وتضايقت من ذلك الجو فدعوت محماد لكي أدفع الحساب وللتو ظهر لي أن أطلب كأسا أخيرا فسيجفوني كالعادة في غرفة الفندق، ولكن محماد انحنى عليّ وقال لي:

– اسمح لنا الله يخاليك المطعم محجوز والسيد الذي حجز جاي.

فخرجت إلى شارع محمد الخامس الذي كانت تهب فيه الرياح تلك الرياح التي ذكرتني ولم أهلع أو ربما كان قد أخذني الهلع إلى حيث لا أعلم، فغابت عني تلك الأشياء والمرئيات ونسيت الجهة التي على أذهب فيها ولم أنسَ زكريا الذي ظل واحده معي في كل ذلك السديم.

وحينما تأكدت أنني لم أعد هلعا تراءت كنزة أمامي،وهي تضحك وتحرك بأناملها المصبوغة الأضافر بطلاء قضي نظارتها السوداء، لترفعها لتجعلها تحط على الجبين.

ولما رأيتها تضحك لم أعرف ما هي مناسبة ذلك الضحك الذي ظهر ضرسها الداخلي، وهو يلمع فلم تفطن إلى أنها اصطنعت عكرا فضيا على شفتيها إلا بعد حين، فقد خدني غور نحو لمعان الضرس وعرفت أنه معوض من البلاتين.

كان شعرها مصفوفا وأظافرها مطلية بذلك البريق الفضي وشفتاها فضيتان، وقلت لنفسي هما ليست للتقبيل، وإنما هما للنظرة وظننت أنها خارجة من حالة مطار فاس سايس صدفة، ربما أو لتستقبل والد زكريا ربما كان عائدنا من دراسته في كندا ولعلها قد جاءت إلى المطار باحثة عن المجهول.

في تلك اللحظة كانت قد تحرر من كنزة وكدت أنسى ما كـان بينـي وبينهـا، فظننـت أنـي لا أعرفهـا إلا خارجـة مـن حالـة المطار، وقد جاءت تبحث عن حظها في المجهول، وكان زكريا قد انطلق للعب في البراري يريد أن يصطاد قنفدا أو يطلق كلبه وراء أرنب وبقيت أنا أوجه ضحكات كنزة وانظر إلى الغور الذي يستقر فيه ضرسها البلاتيني حتى وإن لم أنظر وأحنيت نظراتي ثم أخذت أشم روائح المواد الطبية التي يستعملها أطباء الأسنان، وأسمع أصوات الثقابات والخراطات وأرى أناسا يمضضون الماء في أفواههم ويصقون ما يتبدى لهم خيوطا من دم فكيف مضحك كنزة، والطائرة ما تزال جائعة فوق سطح البيم مهددة بانهياره والركاب ما يزالون أسارى رعبهم وانتظارهم للنجاة؟ ربما ينفخر خزان الطائرة وتتدلع النيران، وكنا أنا وهي ربما نقف على الأدراج أو في وسط الصالون أو تمضي في خطوات قصيرة تحكمها أمتار قليلة داخل الفيلا التي كنا نسكنها، حيث تجثم الطائرة على السطح، وقد وقعت بكل ركابها وطاقمها إن لم يكن الربان وأعضاء الطاقم قد قفزوا بمظلات احتياطية، وكنت أحب أن أصعد إلى السطح لاساعد الركاب على فتح الأبواب أو أفعل أي شيء ممكن ولكن كنزة ظلت تضحك، وزكريا قال وهو يخرج لاصطيات قنفذ أو أرنب أن رجال المطافئ وخبراء الإنفاذ ومعهم

السلطات المحلية سوف يهبون لمكان الحادث، وأنه يتلهى في الخلاء ريثما يراهم قادمين وبدت كنزة وهي تضحك كأنها لم تصدق هول الكارثة، فقد أخذت الطائرة تحوم مع اقترابها من المطار، وهي تميل على جناح واحد وتبدو ساقعة لا محالة ثم ترتفع قليلا وتحوم مائلاة فوق سطح دارنا، لتعود ثقيلة الحركة وتسقط فوق السطح الدار، وبالطبع فمن غير المعقول أن تسقط أو تحط طائرة فوق سطح منزل، ولكن كنزة ظلت تفوح برائحة تلك المستحضرات وعدت أري المشهد من أرى من جديد، والطائرة تلوح في الأفق وهديرها مسموع، وزكريا يشير لها بسبابتها فرحا بمقدم طائرة لتحط في مدرج مطار فاس سايس القريب من مكان سكاننا، ولكنها ارتجعت في الحركة ومالت واضطربت وبدت عاجلة السقوط، ثم استوت ومضت بعيدا وأنا وزكريا نلاحظها بناظرينا، وعادت تقبل مضطربة الحركة حتى رأينا وجوه الركاب وسحانتهم ولم أعد أرى أي شيء سوى أن يدي قد تشيئت بيد زكريا، وقد ضممته إلى صدري، ولكنه نفر مني وقال سيذهب إلى ذلك الخلاء لاصطياد قنفذ أو أرنب وغابت الخرائط والمواقع والأشياء والسهل والجبا واتجاه المطار وغاب عني موقع جسدي من فرط الهلع، وما كان بإمكاني أن أبعد عني حضور كنزة وهي خارجة من حانة المطار، وكنت أواجه حربا

قاسية مع لحظة هذه المسألة، حيث تسقط طائرة بكل ركابها فوق سطح البيت وعدت لي تلك اللحظة التي كنت قد ضممت فيها زكريا إلى صدري فلم أجد سوى الفراغ، وبعد حين وأنا على ذلك الهلع رأيت أناسا قادمين بغير ملامح وهم بعدد الحصى والحجر فدخلوا الفيلا وصعدوا الأدراج يتزاحمون ويتسابقون حتى وصلوا إلى السطح، فخلعوا الباب الخلفي للطائرة وبدأوا يخرجون الأمتعة والحقائب والصناديق ويرمون بها من السطح إلى الأرض ولم يفتحوا للركاب بابا ولا عبئوا بتلك الإشارات المستغسية المتوسلة التي كان الركاب يرسلونها بحركات من وجههم وأيديهم من وراء زجاج النوافذ، وظهرت كنزة على الطريق تعطي الأوامر لأولئك النهابى بأن يكتفوا بما رموا به من أمتعة وحقائب وصناديق فنزلوا الأدراج وحملوا كل تلك الأشياء بأيديهم وعلى ظهورهم ورأيتها تعود إلى حانة المطار تظهر أظافرها المطبوغة بذلك الطلاء الفضي وفي غور فمها يظهر ذلك الفرس البلاتينى.

بقيت أشم تلك الرائحة.

ظلت الجدران تضغط على العين والقلب وتميل وتتهاوى، وقد أخذ منها التهم وما كان صمة من الجدار ناهض وحتى السقف أخذ يتكئ على عمود مائل يهدد بالسقود وقلت لها:

– هل يمكنني أن أعرف في هذه اللحظة إلى أين سوف تذهبين؟

فقالت لي:

– ولماذا تريد أن تعرف؟ ألسنا مطلقين؟

وبدوت لنفسي وكأني قد نسيت موضوع الطلاق أمام هول فاجعة الطائرة فقالت:

– هل تظنني سوف أعود إلى بيت والدي الجزار؟ ولكنني أنا أعرف إلى أين سوف تذهب أنت وهذا يكفي.

وقلت لها:

– أنا عابر سبيل في مملكة هذه الخراب الواسعة.

قالت:

– أنا لم أشاهد الصحراء مرة في حياتي، ولا أحب الظلام، وعيناي لا تضيئان إلا على الطريق صعب شديد الانحناء.

وقلت لها:

– ما الذي سوف تفعليه بما نهيته من ركاب الطائرة؟

فقالت:

– دعنا من هذه الثرثرة فالشمس غربت والوقت فات.

وقلت لها:

– دعينا نجلس شظية من الشظايا لنسترجع بعض الذكريات.

فقالت:

– أهي شظية من جسدك؟

وقلت لها:

– إنني أرغب في اللحظة بالخروج من هذه الخرائب، فهل نتساند ولو لوقت قصير، ريثما من الخرائب، ليذهب كل منا نحو جهته؟

فقالت:

– أنت تتحدث عن الصصم وهو صمم هذه الجدران التي لا تقوى على أن تسمع كلامك بالأمس وقبل أن تقع الطائرة على سطح هذا البيت حلمت بجسد هائل يواقعني وينشر ظله على، وما كان له من وجه وكنت عذراء فاخترقني ودخل ذلك الماء في الماء.

وقلت لها:

– وهل كانت له خصية واحدة أم خصيتان؟

فقالت:

– أنت لا تستطيع أن تنسى.

ولا أدري هل هو صمت مقبرة في وقت الحجير أم أنها الطيور الكواسر القادمة للإجهاز على جثث ما تزال دماؤها طرية؟ فما عادت إلى جهة أسير نحوها وخشيت أن أبقى هناك في وسط ذلك الخراب، والحق أيها الكاتب أني كنت أرغب في الابتعاد

عن كنزة التي صار لها وجه ذئبي فحسبت أن الذئاب الآخرى قادمة لتحاصرني.. لكنها لم تبعد وبقدر ما كمت ابتعد عنها ظلت تقترب مني، وأنا لا جهة لي أسير فيها قلت لها:

– هي الريح صرصر عاتية والتواب والنجوم تتهاوى والأبراج والقلاع والحصون تستبيحها اقتلاعات لا تبقى ولا تذر، والجذور لا عروق لها ولنسخ في الأرض والتراب وأخذت تضحك، وقالت:

– وما النسغ ونما العروق؟

وقلت لها:

– أنا أسمع هدير الموج وأرى انهيار الماء والضوء في الشلالات.

فقالت:

– هل أنت مربٍ أم بائع أرواح أو تاجر أسلحة؟

وقلت لها:

– أنا بائع أو هام وأحلام وصانع عرائس من قصب أبيعها لعرائس أخرى من قصب أحب السحب، وقد كانت جدتي لالة زهور الله يرحمها لا تحب الذهب.

ولا أدري كيف انتهي بنا ذلك الموقف الذي حسبته حلما رأيتها فيها، ولا كان بحلم فقد قرأت في الجرائد غد ذلك اليوم

أن الطائرة قد تحطمت فوق منزل، وأن أشياء شبيهة بما حدث كانت قد حدثت وحتى المنزل كان يقع في الأرض غير هذه الأرض، وفي مكان غير هذا المكان، فقد أخذت أبحث بين سطور الجرائط عن اسم كنزة، فلعلهم يدكونها مع أسماء أولئك النهابين.

أصابني الإعياء والجهد والتحير، وكنت خارقا من مطعم الشرنقة لا أدري هل أعود إلى فندق النخيل أم آتيه في الطرقات لأطرد عني شبح كنزة أم أذهب حانة المطار التي تبقى مفتوحة إلى هذا الوقت المتأخر، وأتذكر أنني كنت قد قلت لها:

– وزكريا متي يعود؟

فقالت:

– أليست مصيبة أن يعود يجد هذا البيت منهدا؟ يكفيه ما يعنيه فهو يعالج عند الطبيب النفسانى.

ثم أضافت:

– المناسبة فالطبيب يستدعيك لجلسات خاصة معك حتى يعرف مرض الولد الذي ظل مغلقا ولا يرد عن الأسئلة.

وقلت لها:

– أهو كابوس؟

فقالت لي:

– هي خفافيش الليل. وقلت لها:

– هل لكل ما حدث علاقة بالخفافيش؟

فقالت لي:

– يمكن أن تطرح هذا السؤال على الطبيب النفساني.

وقلت لها:

– والمرائي والمرايا؟

قالت:

– كل ما يظهر فيها هو الخفافيش، ألا يكفي انك تتهمني بالسرقة متاع ركاب الطائرة لم تسقط أبدا؟

كنت إلى الجدار. وجدتني وحيدا أعزل خارقة في الحلم، ولعنت ذلك الطريق الذي قادني في تلك الليلة إلى مطعم الشرنقة، وما دريت إلا وأنا أدخل الفندق، وأطلب من الحارس الليل أن يوقظني في السادسة صباحا حتى أترك القطار في السادسة ونصف الذي سوف أتوجه نحو الرباط.

وكفانا ما سجلنا فضغط على الزرة، وسيعقب هذا الكلام كلام آخر، وأقول لك مرة أخرى إن هذه التفاصيل لم توصلني إلى ما أردته من الكتاب، وأعلم أيها الكاتب أنك لست مرتزقا ولا

بحثا عن الشهرة على حساب هذا المهازل والمآسي، فأنت صبور وولد طيب صبرت معي على أن أحاول عابثة القبض على بعض الأشياء المهمة التي قد تعنيني وتعين غيري من الناس، وعبث أن أحكي لك بعض الأشياء على سبيل الاستناس، لكي أصل إلى المهم، ولك أن تمحو من الشريط كل هذا الثرثرات.

ومع أقافك لشريط التسجيل فأن أحب أن أقتص لك شيئا مهما عن علاقتي بلوكي فرسي التي تروكها في ذلك الإسطبل في التي تعرف جهتي، وكما كان مولاي عبد السلام يتحدث عن خولة ويقول أن ظهرها يعلو على ظهور كل النساء هذا العالم، فأنا لا أبلغ مثله ولكن لو كي هي التي تعرف كيف تسبح به في ذلك الهواء مرواغة كل الجهات التي تعترضها زائرة دجاج لا تلمس الأرض بقوائمها نحو علو لا أدري مقامه من العلو، ولو كان له الوقت الآن لذهبت إليها، وتطللت عليها وأطعمتها بعض قطعة السكر وداعبت حنكيها براحتي فهي حتى وإن كانت جائمة فستتشم رائحتي على بعد وتنهض لتسبق لحظة إطلالي عليه من فتح الأسطبى، ورأسها يطل ونظرتها متقدة في الظلام، ولكن سوف تذهب ولو كي ستبيت معي في فراشي في هذه الليلة ولا أدري على صحوتها إلى أين سوف تحملني، ولكني أعرف أنها

هي جهة واحدة تلك التي أردت أن أحدثك عنه ولم أجد إلى ذلك سبيلا أمام تدخل الجهات وابتعادها واقترابها من بعض فتصبح على خير، وإن غدا لناظره لقريب.

الموشومات

لعلها ماكن النسيان
هي أماكن الذاكرة
ولعل أعراسا أو منحات للأماكن
سوف تقام
في تلك الصحراء وهذا المكان

أطلت برأسها على داخل العربة، وبدات كأنها سوف
تسير مع الممر ثم تراجعت وفتحت الباب.
نظرت إلى نظرة خاطفة ووضعت حقبتها على الرف.

لما استوت جالسة قبالتي تطلعت إلى وجهه فأشحت عني وأخرقت منديل كلينكس، ونظفت بيه أنفه وسوت خصلات شعرها ومالت على جانب ثم استوت شبكة متكئة على الجانب الآخر ورمت بنظرها نحو الخارخ، ثم عادت تنظر إلى الأرض، وأخرجت من الحقيبة مرة صغيرة، فتطلعت إلى وجهه، وعادت المرايا إلى مكانها في الحقيبة ثم أخرجت علبة سجائر وأشعلت سجارة، ونفشت الدخان في اتجاهي، ولما أدرجت أن ذلك قد ضايقني أخذت تبدد لك السحبة بحركة من يدها، ونهضت ففتحت الباب وتركتها مفتوحا.

كان القطار قد تحرك وأخذ سرعتها العادية.

وما في العربي أحد سوانا يمكن أن يلحظ نظراتي وانشغالي بتفحص ملامح وجهها، فهي سمراء نحيلة شعرها فاحم، وعينهاها مليحتان تبدو في العشرين لبسها متحرر تدخل بحركة وتتبلع أكبر قدرة عما تستفه من السجارة، لتنفثه بعد حين، وقد خبته في صدره لحظت أرنب أنفها فرأيت أثر وشم يبدو أنه كان، ثم محي

وترك أثره، فأحسست الفة مع ذلك الوجه كان وجها قديما آت إلى من المجاهل حياتي الماضية أو كانوا جرح زكي ما تزال تنزف في داخلى.

بعد مضى وقت سألته:

– ذاهبه إلى الدار البيضاء ؟

فردت وهي تتنهد:

– إلى تطوان.

فقلت:

– ستغيرين القطار طريقنا إذن ليس واحدا.

وقالت كالمذهولة:

– لماذا؟

– لأنك ذاهبة إلى تطوان وأنا ذاهب إلى الرباط.

– أه الطريق.. ظننتك تقصد طريقا آخر.

– أي طريق؟

– لا أعرف، ولكننا انطلقنا معا من الفاس.

أربكني كلامها وفرحت بكونها قد أخذت تشاركني في الحديث، وحتى وإن كان حديثها من قبيل الألغاز، وقالت بنت صغيرة ومع ذلك تبدو مقربة فهي تتصرف بثقة وتعال، وتفتح

بحركتها وكلمتها باب الكلام، ثم توصده بالنهاية غير متوقعة لتعود إلى سهولة ونظرتها القلقة بين التافذ والممر، وما بداخل حقيبة يدها وكأنها تداري قلقها يوشق أن يفضح شيئا عما تعنيه لعلها هو دافع هذا إلى تطوان.

عدت مع ذلك الصمت أفحص بنظراتي أثر ذلك الوشم على أرنب أنفه ولما أحسست بالمكان الذي تتوجه إليه تلك النظرات ذات أشعلت سجارة، وأخذت تدخن بعصبية وهي تشيح عني بوجهها، وأخذت أنظر إلى الحقول وطريق السيارات وإلى بعض السحب المنزلة التي كانت تتفرق في السماء متجهة نحو بعضها لكي تتكسف ثم تبدو أكثر تباعدا مع اتجاهات الريح حين سألته:

– ما اسمك؟

– ابتسام.

وسكتت وقالت:

– أعجبك الاسم؟ ثمة أناس لا يسمون بنتهم بأسماء يكتشفون أن بنتهم ربما لو تعجبهم الأسماء أم الأولاد فيصبحون كبش العتيقة.

فـي تلـك اللحـظ رن جهـاز الحـاتف المحمـول، وتلقيـت مكالمة من الصديق أخبرتي بأن جلسة البرلمان قد عرفت مشادة كلمية حتى بين رئيس البرلمان وبين ريئس فريقنا المعارض، هذا وأراد أن يقدم لي المزيد من التفاصيل، ولكني أخبرته بأنني الآن في القطار في الطريق بالرباط وسأتصل بعد وصولي لتداول المزيد من التفاصيل، وكنت مشغولا بما قالته ابتسام، وكانت بفطنتها قد أدركت ما جاء في المكالمة، فقالت لي:

– برلماني؟

فقلت:

– كنت سأكون.

وضحكت، وقالت:

–كم خسرت من المال في الحملة؟

أحسست أنها تتشفى، ولكنني قلت:

– ملايين.

– شراء أصوات؟

– مصاريف الحملة الانتخابية، ثم إن الجميع اشترى الأصوات.

وبدأت ساهمة فقلت لها:

– أنت تفهامين في السياسة.

فردت:

– الحياة كلها سياسة، ولو كنت أنا وراء كثير حملتك الانتخابية لكنت قد حصلت على المقعد.

وأوضحت لها:

–كان ترشيحي في الانتخابات سابقة قديمة، وربما كنت لم تولدي بعد.

ضحكت وعدت أنظر إلى أثر الوشم على أرنبة أنفها، فكتمت الضحكة، وهي تراني أنظر إلي مكان الوشم الممحو، وقالت:

– ولماذ لم تسافر في السيارة؟

فقلت:

– أجريت عملية جراحية من وقت قريب، ولم أطمئن على صحتي بعد.

فقالت:

– والمدام؟

ارتبكت وقلت:

– لا أنا مطلقة؟

ولم أرد، وكما أخزتني بجرأتها فقد أردت أن أتجرأ عليها فقلت:

– أهو وشم ذلك الذي يبدو أثره على أرنبة أنفك؟

وانتفضت مزعورة، وقالت:

– وشم؟ كيف عرفت؟ أهو ما يزال ظاهرا؟

واضــطربت حراكتهــا وبــدت زائغــة النظــرات فاشــعلت السيجارة، في ذلك الصمت تذكرت أن كنزة كانت قد وقفت عند محل في طوري مولينوس خلال زيارتنا لإسبانيا، وقالت لي انظر فما فهمت شيئا، وكان الزحام يشتد على ذلك المحل، وبنات أجنبيات وشبان يتهافتون على المدخل، وقالت لي كنزة إنه محل لاصطناع وشم جميل على الذراعين والفخدين وما فوق السرة وعلى النهد.

وقالت لي:

– شفت عبحد الحميد أنا لم أتوحم على شيء وأنا بولدنا زكريا وحتى بعد والدته فها أنا أريد وشما من هذه الوشوم.

قلت:

– وأي وشم تتوحمين عليه الآن؟

قالت:

– عندهم أشكال شجيرات وأوراق نعناع وتيوس وثعابين وتنانيين وديناصورات ووردة وسنابل وقمح ودبابات وخناجر، وأعضاء ذكورية ووجوه كأنها ورؤس شياطين.

أخذت أضحك وقالت:

– اسمع يا عبد الحميد، انتظر قليلا حتى آخذ دوري واصطنع لي وشما.

ولما كنت هزلان في تلك اللحظة فقد سمعت كلام كنزة وتركتها تدخل ،المحل واقتنصت وقت الانتظار لاحتساء كائسين من البيرة في محل مقابل حتى عادت كنزة وهي تقول:

– البنت صانعة الوشم تطلقت معي، وكان وضع الوشم لا يوجع.

ولم أبال بكلامها فقلت:

– الناس يتعرون دون أن يوجهوا نظرات فضول، ولا أحد ينظر إلى آخر.

وإنني غير مبال بما تقول، واستمرت في كلامها كأنها تحدث نفسها:

– وشمت مكان في جسدي سوف يفاجئك.

قلت لنفسي سوف يفاجئني مكان الوشم إن هي تعرت، وكشفت عنه، فقد كانت كنزة تحب أن تتعرى لنفسها أمام المرآة، بينما تتستر أمامي وأنا وزوجها في الحلال، ولم التفت إلى كلام كنزة، وما همني المكان الذي وضعت الذي وضعت عليه الوشم مادام ليس لي ومادام هذه الوشوم الاصطناعية لا تغريني.

وعجبت كيف تخجل البنت ابتسام من وشمها ولما سعت إلى محوه، بينما يتغزل رجال كثير في الموشومات ويذهبون إلى طريق الحرائق والمتعة، حيث تكون ثمة موشومات.

نظرت إلي كأنها تريد أن تقول شيئا ولما رأتني ساهما فقد كفت عن الكلام قبل ذلك السفير إلى إسبانيا، كنت مهموما وقد حاولت السياسة أن أصلحها لكي أتخلص من همومها، وأتفرغ للتفكير فيما كانت تقبل عليه البلاد.

كان المغرب تخلص من حكم فقير بعد انقلاب فاشل جاء بعد محاولة الصخيرات، وكان الملك قد طرح قضية الصحراء على الأحزاب، بينما كانت البلاد تفتح أبوابها على كل الاحتمالات، فقد ظهر ما سمي بالوفاق الوطني حول ترسيخ الملكية والاتجاه نحو الديمقراطية والوحدة الوطنية، وما كان سفرنا أنا وكنزة إلى إسبانيا إلا من أجل أن أداوي نفسي من جراحها، ومن جراح الوطن، وكنت مؤرقا ومصدوعا بعدة شروخ فلا أدري كيف إذا مت، وقلت أصالحها بكل ما أريد وإن بقيت على كرهها لي فلا أنظر في حل آخر فقبلت اليدين وأغرقتها بالهدايا وأهديتها كلمات لطيفة، الحق إنها كانت تخرج من القلب فتحيرت في أمري وأخذت تسحب أولى خطواتها من

طريق الكراهية، وبدأت تسمح لي بأن ألمس جسدها، صارحتها بالجسدين اللذين رأيتهما في ضيعة والدها ملتفين بذلك الإزار الأبيض وهما يحترقان فظلت تنظر إلى باستغراب، وقالت:

- وأين كنت تخفي هذا الكلام منذ سنوات؟

قلت لها وأنا أقوى على نفسي على مزيد من الصراحة:

- هل نعيم هو الذي يحرضك على كرهي؟

فضحكت، وقالت:

- خرجنا من أوهام إلى نعيم، هل تغار عليّ من نعيم يا عبد الحميد؟

وأحسست أني قد دخلت نفقا ضيقا، وما عاد بإمكاني أن اخرج منه، قلت لها:

- وإذا صارحتني بالحقيقة سأرتاح.

- ولهذا جئت بي إلى إسبانيا؟ ألم اكن يكن في المغرب كله مكان للصراحة؟

- ولا يهم المكان وأنا أنتظر منك.

- ماذا تنتظر الاعتراف؟

صمتنا لبعض الوقت، وأنا أراقب تجهم وارتعاش أطراف أصابعها، ثم قالت:

– أريد أن أعود الآن.

كنا نجلس في مقهى صغير يطل على ساحة فسيحة تغص بالسياح والأطفال والباعة المتجولين، وكان المساء الربيعي يهبط ببطء على تلك الساحة، وإقبال الناس عليها يزداد كما كنت أنتظر من ذلك الحديث أن ينتهي إلى صفاء الخواطر حتى لو طمائنتني باطمئنان كاذب، وأكدت أن ما رأيته كان مجرد أوهام وأبقى مع والدي زكريا ليكبر تحت ناظري وأرعاه وأجعله يتخرج من أفضل الكليات لينال أفضل المناصب، فقد ظل بعض الأغنياء يرسلون أبناءهم للدراسة في كندا ولا أدري هل يوجد من العلم في كندا ما لا يوجد في جامعات المغرب أم أنها مجرد موضة أم أن الأمر محسوب على تخصصات معينة ووظائف معينة هي التي تهيئ لها سياسة التوظيف في البلاد.

ومازال وقت التفكير في هذه الأمور بالنسبة لزكريا، لكني لم أدخله هذه المدرسة الأمريكية في الرباط، كنت لا أطيق أن أراه بعيدا عني، وتذكرت كيف كان زعماء الحركة الوطنية ونخب المجتمع الجديد بعد الاستقلال يرسلون أبنائهم للدراسة في أرووبا وأمريكا، بينما هم كانوا يشرفون على المدارس الحركة الوطنية التي كانت تعلم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي، ولا تصل إلى القروين، أولى كليات الآداب فهي نخب فكرت أن

تحتفظ لنفسها بما سيخلفونها في الزعمات والوزارات ودواليب الحكم، وتسيير شئون البلاد، بينما رأيت هذه النخب أو الشعب في حاجة إلى مدرسين وممرضين وموظفين في البنوك ومكاتب البريد، ولا يمكن لأي أحد أن يذهب للزعامة إلا إذا كان قد ورثها من إرث العائلة أو تجرأ على أن يسلك طريق السجون والمنافي والاغتيالات ليصبح معارضا، وإذا ما كان قد تعقل وآمن بمسلمات ما اتفق عليه الحكم مع الأحزاب بما يسمى بالوفاق الوطني، وظهرت الحاجة إليه كتقنوقراط أو كواجهة للديمقراطية التي ترفع أناسا من المغضوب عليهم إلى سدة الحكم، فتلك الريح محسوبة بالعواقب.

وما كان لي أن أفكر في زكريا الدباغ على هذا النحو، وعلى هذه المصائر التي هي بيد السياسات تتواطأ عليها الأحزاب مع السلطة، بل كانت أفكر في بقائه معي قريبا من عيني، أنا الذي لا يطرف لي طرف دون أن أراه قريبا مني ويقربه مني، فهو لن يحتاج إلى دوخل مواقع الرياح السياسية التي لا تستقر في البلاد، لكنني لا أحب أن أراه فاشلا في الدراسة، وهو كان متوسطا في نتائجه تأخذه السيارة وتعود به إلى البيت وما أردت له أن يتمزق بما أنا أتمزق به، وإن كنت أنا لم أصل دراستي فأمي لالة خدودج هي

التي ما رأت لي مستقبلا في دار الدبغ وهي التي فتحت لي باب التجارة.

وأعود إلى كنزة فقد نهضت من تلك الجلسة، وسارت في اتجاه الفندق كان جواز سفرها معي في جيبي إلى جانب جواز سفري، وطالبت منا أكوابا كبيرة من أحتسيتها على مهل، وحاولت أن أنسى كنزة ولكن إحساسي بفضاحة الخسارة والفشل ما جئت من أجله جعلني شاردا مكدر المزاج، وقد بدا كل ما أمامي من حركة الساحة مجرد ظلال وأشباح عابرة في تلك الليلة عدت إلى الفندق متأخرا، ولم نتبادل أي كلام وفي الصباح ركبنا الباخرة وعدنا إلى فاس، وعاد شرخ علاقتنا، كما كان، وتيقنت أنني يجب أن أصل معها إلى حل آخر بعد أن بدا لي ذلك ضربا من المستحيل.

وهي نهايات

أو بداية البديات.

وما عادت سوى ظل في حياتي، كما أن ظل الأوهام نساء أخريات لم يكن عبورهن في حياتي سوى ذلك العبور نساء من الجارات أو من تعاملات تجارية أو من أوهام نساء، وكنت في ذل

العبور أمشي فوق شظايا من زجاج جارح يجرح القدم كما يجرح الروح.

فما أغرتني امرأة أنها تستحق مني تاريخ كل هذا العذاب.

وما أوجعتني امرأة وهي تمنحني ما كان ممنوحا لغيري، فلم تعطيني الأخلية وبذخ الحرائق وارتياد المجهول.

وما وجدت.

وما كنت أنتظر نهارا أبديا أو سرمديا يختلج فيه الكون كله، لينهض لرؤية عبد الحميد وهو يصبو صبو الروح.

صبوة تفجر الماء من الحجر.

تخرج من البراكين من صخور راكدة صماء.

تذيب معادن الجسد.

وتنطقه بما فيه أو تعيده إلى فناء.

ولماذا أنا الآن كل هذه الأشياء وقد استعدتها لآلالف المرات؟ هل هي الدائرة الضيقة التي غدوت أحيا فيها، وهي في كل مكان، وفي كل وقت تضيق عليّ وتأسرني؟

في الأيام الأولى من ذلك السفر إلى إسبانيا أتذكر أنني كنت أحاول أن أكون مازحا، وأن أتقبل منها الكلام في بعض الأمور التي بدت لي تافهة فأخذت أظهر اهتمامي بما تقول كنزة، وحتى قد ضاعت مني شهوة الضحك والثرثرة وتصيد لحظات المتعة الحكي الكلام، ولكني استعدت تلك الشهوة للضحك والكلام في سفر آخر في إسبانيا حدث بعد عامين، وكانت رفقيتي فيه هي مليكة، وحيث لا أدري كيف صبوت تلك الصبوة مزيدا من حب الحياة، وقد تفتقت الرغاب في دمي.

كانت مليكة لم تبلغ العشرين شبيهة بابتسامة هالة التي تجلس بقربي، حبة لوز مقشرة ومقلية شيطانة من نار لذة، لا يمكن أن تكتوي من لهبها سوى من يعرف أين تكمن تلك الخبايا، وكان ذلك على شفاتيها يستدرجني إلى الجنون، فكنت أمنحها مزيدا من فيض عروقي ربما في الخيالات والأحلام، أوربما في اختلاس جميل يعبر بعض أوقات حياتي.

والحقيقة لا أدري هل تمت بعض الملاعبات الحارقة بين جسدينا أم أنني كنت آتي لنفسي بما تخليته من تللك الملاعبات.

يمكن أن يكون ذلك قد حدث بالفعل في غفلة منها ومني.

ألتقت العينين الحمراوين على الخدين.

وبعث حركات جسدها لما كنت فيه من رقاد أو خمول.

الدهشة أمام اكتشاف امرأة أولى.

كأنها بادئة للحظة الوجود الأول.

السفر والاقتراب من الماء والشجر.

الضحكات والربيع في كل الفصول.

انتعاش الروح.

والفرح الطفولي.

وما كنت أتغزل بها فما كان لي لسان ينطق بذلك الغزال، بل كنت مولها بامتلاكي للعالم بين كله بين يدى.

كانت تمسكني بين ذراعي وتصغي إلى بعض حكاياتي الضائعة، ونحن نسير في المدن.

وكانت تنام في غرفة الفندق لوحدها بينما هي كانت تنام معي في الفراش فوق الماء أو هو فراش من أغصان الشجر أو من الثلج، فقد ترسبت فصارت الأرض بيضاء كما صار كل شيء أبيض فخشيت أن تضيع مني في ذلك البياض.

كنت أطعمها من يدي وكانت تطعمني وهي تضحك.

تتذكر زملاءها التلاميذ وهي في الثانوية طارق بازرو وتحكي حكايات عن الحب والدراسة والمدرسين، ولما تراني شاردا أو قد ظهر في نظراتي ما عكر صفوي فهي تستأذنني في أن آخذ مكالمة للبيت حتى تطمئن على والدتها حتى تخبر الوالدة بمنع السفر والأشياء الجميلة التي شاهدتها.

كانت تشتري من مالها بعض الهدايا لأختها سعيدة وأحيانا تقترح على مكانا لتناول العشاء هي التي سوف تدفع ثمنه، ولكنها لم تدفع ثمن خمرتي، فذلك سوف يرهق مزانيتها كما كانت تقول.

من كان يرانا في المدن والفنادق والمقاهي يحسبها ابنتي وكان مجرد أن أقرأ ذلك في عيون العابرين يغيظني ويعيدني إلى فارق السن الذي بيننا وفي إسبانيا كانوا يقترحون علينا غرفة واحدة للمبيت، فكنت أنا من كان يلح على غرفتين حتى أنا أقرأ في نظرتها ما يحفزني على قبول عرض موظفة الاستقبال.

وفي بعض المدن كنا لا نجد سوى غرفة واحدة من سريرين فأصرف نظري وأخرج باحثا عن فندق آخر نجد فيه غرفتين وفي الطريق كانت تقول لي:

- ربما لم نجد.

وأصمت فتقول:

- ولماذا لا نبيت أنا وياك في غرفة واحدة؟ لن أخبر أمي بذلك.

ولا أرد عليها فتقول:

- أنا لا أحب النوم في غرفة الفنادق وحدي، وتعودت على أن أبيت مع أختي سعيدة في غرفة واحدة.

وكنت أفرح بهذه البراءة الطفولية، ولا أحب أن أفهم أي شيء آخر، ولكن.

كل ذلك صنع وقتا من جنوني مع ما كنت أذهب إليه من سفر لا نهائي وأخيلة وعبث لذيذ بكل ما كنت قد استرخصت له حياتي.

هي مصائد للجهات تضعها لنا نحن، ولكن دوافع خافية هي التي تجعل الإنسان يتردد في الوقوع في تلك المصائد.

هي مصائد الجهات.

وتردد الكائن على تلك الجهات.

وحتى لو كانت تلك المصائد قبرا أو سجنا أو غربة أو صدر حبيب فهي مصائد.

أو حتى لو كانت سحابات سماوية تعبر في مجال العين أوحزام الآلة فاطمة الزهراء أو سيولة نقدية تجري أمام العين أورياحا عائيات أو أزباد البحار أو ما بين سطور الكتب.

هجرت كنزة البيت وأخذت معها زكريا وظل والدها الجزار يضع مقابل عودتها إلى البيت أن أملكها كل العقارات التي كانت رسمها باسمي وفعلت، ولكنها لما عادت ضحكت، وقالت: أنا عائدة إلى بيتي وأنت لم يعد لك شيء أطلبه منك تعطيني إياه، ولكن صاحبك رئيس الحكومة لابد أن يشفق من حالك، فهو لن يرضى أن يكون مناضل الحزب يتسول من يدفع عنه الكأس وسكن في حانة شعبية ليهينه ويشتم حزبه، وحزب رئيس الحكومة، ولكن جعله يصل عبد الحميد سواء إلى البرلمان أو إلى الوزارة، وشفي والدي الجزار المسكين، وترك حوانيت اللحم وهو مريض بالسكر، وقد صار لا يخرج ولا يدخل ها هي كنزة سوف تقطع قلبك بوالدك زكريا فسأعلمه كيف يكرهك ولو وجدت يده سكينا لغرزها في قلبك، ولكنه مسكين صغير وسيكب أنا امرأة لا أحب ذلك الشيء الذي يجعل الرجال يقتربون من النساء بالليل فماذا أفعل؟ وأنت لا شك تخونني مع امرأة وإن عرفت وإن عرفت من هي فسأحرقها بالنار، ولكني لم

أعرفها بعد قد عرفت أنك تخونني فسترين إن لم أقطع قلبك فأنا لست كنزة.

وقلت لها اتركي الولد وشأنه يا كنزة وداعيك من هذه الأحقاد فهل بقي شيء بيننا يصون للعلاقة ما تسمينه خيانة الرجل يخون امرأته أو يخلص لها وما أنا فلا شأن لي بك، فكفي عن الشتائم والأحقاد واذهبي إلى حال سبيلك.

كان صديقي السي عبد الهادي قد عرفني على يزة.

قال لي تعال لنسافر يومين أو ثلاث لنرتاح وتنسي مشاكلك وتسترد قدرتك على الاستمرار في العيش والضحك، وقال:

– سافر تجد عوضا عمن تفارقه.
– أكملت البيت الشعري وأنا أضحك.
– وأنصب وأنا لذيذ العيش في النصب.

ابتهجت يزة وهي تستقبلنا في بيتها، وقدمت لنا طعاما احتفاليا ودخل صاحبي معها في أحاديث أسترجعها من خلالها بعض الذكريات وترحما على المرحوم زوجها وأنا صامت أصغي إلى حديثهما الحميم.

بدت لي يزة امرأة رصينة على مرحها وضحكتها وأخذت أسترق إليها نظرات على حياء، وأنا أرقب الوشم على أرنبة أنفها نافرا، وكأنه سوف ينطق.

كانت تجلس بنتيها الصغيرتين مليكة وسعيدة التوأمين، وظلتا تلهوان بما قدمه لهما السي عبد الهادي من هدايا.

كان يريد أن يخرج من جيبه تلك القارورة الذهبية، ويزة فهمت الحركة التي كان يريد أن يقوم بها، وطالبت منه ألا يتسرع في ذلك، وقال لها الله يخاليك الالة يزة صاحبي زعفان كره الدنيا، وهو ما جاء لياكل وأنت صاحبة الخير الله يخلف عليك، ولكنه جاء ليضحك ويسمع الغناء، وينسى الهم وصرفت البنين، واستوت في جالستها فأخرج القارورة وصب لنا كأسين.

بعد صمت جاء صوتها ليشق الحجر متراميا ليخترق الجبال الصماء، وهي تردد صداه ومن فرط ما أخذناه صوتها لم تمتد يدانا إلى الكأسين.

كنت مأخوذا بسحر صوتها وجبروتها واختراقه للمكان أخذ معه مما اضطرب في خاطري من أفكار غامضة ما كنت أدري وجهة لها.

وبالرغم من أنني لم أكن أفهم ما تقول وهي تغني بالأمازيغية فقد استبد الجيشان، وخشيت من أن تنفجر الدموع من عيني وأنا أحاسبها تندفع نحو الماضى.

كأصوات البدء كان صوتها متحررا من أي تصنع وهي تذهب به نحو أبعاد لا أبعاد لها، وما دريت فلعلي كنت مسحورا أهيم في عوالم غامضة هي التي صورها لي ذلك الغناء.

عوالم من ريح أو غمام، أو أقصى درجات تحرر الروح. فلعلي قد مضيت في الحلم مع ذلك الغناء، نسيت فيه جسدي الذي عاد يخف ويتصاعد مع تصاع آخر للروح.

ولم عدت أرى يزة وعبد الهادي وصالة الجلوس أمامي، بل كنت في تحليق عجيب مضيت فيه مع صوت يزة نحو الجبال الأطلسية وتساكنت في قمها مع الريح والشجر والسحاب.

جش صوتها.

تحول إلى دمع سماوي.

وخشيت أن يكون هذا هو الفراق أو وداع الحبيب هو ما يقوله ذلك الغناء، فلا فراق لي ولا داع فظننته هو الموت ولا يبقى من النحيب إلا ما يحاول إلى صرخة التياع.

وحسيت غناءها صوتا أسطوريا.
تابع من أساطير الأمازيغ.
يجري مع الأنهار.

أو يسير في اتجاه الأنهار أو يعود من سفر البعيد ليمزق نياط القلب.

بعد أن انتهت من الغناء طلب منها السي عبد الهادي أن تشرح لنا بالعربية كلمات الأغنية واعترضت على ذلك، وأنا أتوسل إليها، وقلت أن ذلك الغناء كان يجعلنا نتصور له الكلمات التي تنبع من اللحظة من قلوبنا وارتجاج أروحنا فلا حاجة إلى الشرح.

شربنا أنا وعبد الهادي من تلك القارورة الذهبية، وشربت يزة شايا بالنعناع بعد أن جاءتها إحدى التوأم بالصينية ووضعتها أمام عبد الهادي فصب من البراد في كائس وقدمه ليزة بيده.

بدأت تلتفت نحوي متطلعة إلى نظراتي، ثم بعد حين قالت وهي توجه.

– السي عبد الهادي أخ وصديق كان شريكا في التجارة لزوجي المرحوم، وهو يعرف أن بيتنا بيت شريف.

وقال عبد الهادي:

– الله يرحمه، كان رجلا ونعم الرجال.

وقالت يزة:

– أنا لا أستقبل الغرباء في بيتي، وعلي أن أصون عرضهما، ولكن مرحبا بالسي عبد الهادي ومن أتى معه إلى داري.

ووجهنا لها كلمات شكر وعادت ترحب بنا وهي تنظر إليّ:

– عين اللوح فيها الكثير من البيوت التي تستقبل الغرباء الذين يأتون للسهر من فاس والدار البيضاء مراكش، عندنا بنات يغنين بأصوات أجمل من صوتي ويتفتن في أمور العلاقة مع الرجال، ولكن هذا بيت شريف.

ولأول امرأة انتبهت لصوت رجل في الخمسين معلقة على الحائط، فلما رأتني أنظر إليها، فقالت زوجي المرحوم وهو من قبره يرى كل ما يحدث في الدار، وأنا لا أجعل شيئا يحدث لا يرضيه.

فقلت:

– معذرة والغناء؟

قالت:

– المرحوم كان لا يمنعني من الغناء أمام الرجال.

وقضينا ثلاثة ليالي لم نخرج من بيت يزة خلالها، وتألقت معها ومع البنتين فعرفت عني كل شيء، وعن محنتي في الزواج من كنزة وإذا شئت أيها الكاتب أن تعرف ما حكيته لها ما كنت قد حكيته أمام جهاز التسجيل وحتى حكاية الصندوق الذي أنكر والدها الجزار أنه قد تسلمه أمانة من سكان الحي ومكاية الإزار الأبيض الذي التف فيه جسدان لرجل وامرأة، واشتعلت فيه النار، وخصية النعيم الواحدة وترشيحي للبرلمان وحكاية كل جهة من الجهات حكيتها ليزة وأنا غافل عن إنصات وانتباه ابنتيهما مليكة وسعيدة.

لم ننم إلا نوما قليلا ورغم الوسن في العيون فقد كنا نشيطين تفرغ ما في قلوبنا من الهموم ونضحك من القلب مستمتعين بالغناء.

ولما جاء وقت ذاهبنا رفضت يزة أن تأخذ مبلغا ووضعته في يداها، ووقف صاحبي مشدوها، وقال لي عبد الرحميد أفسدت كل شيء فهل تظن أن المحبة تشتري بمال يزة أختنا وعزيزتنا، وإذا أردت أن تصون كرامتها فخذ مالك، واعتذر عما فعلت وقدم لها هدية في مناسبة قادمة إذا شئت، فبادرت إلى دعوتها هي والبنتين لزيارة فاس ووعدت بأن تنفذ تلك الزيارة في

القرد فتركت لها رقم الهاتف ولم يمض شهر حتى اتصلت، وقالت أنا ومليكة وسعيدة في فاس، وقالت صاحبك عبد الهادي عارف، واتصلت به وأخناهن إلى فندق زانغ بعد أن أقمن في نزل ضغير بالملاح يرتاده الغرباء عن فاس، عادة وهو رخيص الثمن، وقريب من وسط المدينة، ولكنه لا يليق بأسرة لها عزها في قلب جبال الأطلس الشماء، ولذلك رأيت أن فندق زالغ يتوفر على غرفة نظيفة ومطعم يهيئ الوجبات تحت الطلب، فكنت قد نظمت مع إدارة الفندق برنامجا لنحتتتف بذوق فاس في الأطعمة، وهو ذوق أندلسي على الحال، وضعت في حسابي أنهن سوف يتناولن طعام الغذاء وجدهن، بينما العشاءات نحضرها معهن أنا والسي عبد الهادي فرحا بأن ذلك سوف يخرجني من غربتي.

ونظمنا لهن زيارات لمولاي إدريس باني فاس والقروين والقيساوية وإلى الضواحي، حيث زرنا سيدي حرزام ومولاي يعقوب واشترينا لهن من صواني المفضض والبابور الذي يغلي فيه الماء الشاي، ومن الجلابيب والقفاطين والشربيل المطرزة ومن الشماعين اشترينا لهن اللوز والجوز المقشر والحلوى زريعة الكتان، وتناولنا معهن العشاءات في مطعم الفندق، فكانت معدة تحت الطلب فحفلت المائدة بكل صنوف الأطعمة من دجاج

محمر وضع عليه البيض المسلوق واللوز واللحم بالبرقوق وبصطيلة، إلى جانب السلاطات الفاسية المعروفة، وكنت أتحرك بحرية في المطبخ وأبدي بعض الملاحظات للطباخ كما أطلب من المتر أن يقدم هذا أو يؤخر ذلك، فالفرح بالضيف وتقديم الطعام وفنونه هو من شيمنا ولتلك الفنون أنواعها ولذاتها في فاس ومركش وسلا وفي بني ملال وسوس والصحراء.

الأطياب كثيرة والفقراء والأغنياء سواء في تنافسهم على تقديم تلك الأطياب للضيوب، علما بأن اللئام يوجودون في كل مكان واللئم من لا يكرم ضيفه، ويقدم له أزهد الطعام وأحيانا يأكل من زاده، ولكننا والحمد لله لا يكثر فينا اللئام، وأقول لك أيها الكاتب هذا الكلام لكي تعرف أنني قد تجولت في ربوع المغرب من أقصاه إلى أقصاه،وصارت لي تجربة بمعرفة الناس لا في مجال الكرم والبخل فحسب، ولكنني أصغيت إلى نبضات الناس ورقبت سلوكهم وحبهم أو تحفظهم من البراني الذي يأتي من مناطقم إلى مناطق أخرى، وما كنت أوظف ذلك في موقعي السياسي لأنني أشعر كباقي الناس مجرد مواطن والمواطنة تقتضي هذا الحس لمعرفة الجهات أو هي جهة واحدة جهة السهول والجبال وأقاصي الصحراء فدماء الشعب وقبل أن تلوثها دماء

السياسة هي دماء نقية، وعلى سجية ما تفرزه من ضروب السلوكات الاجتماعية لا لكي نمجد منطقة أو جغرافية على حساب أخرى بل لكي نعي بمحيطنا وما هو قائم فيه من عادات وسلوكيات.

وأقول لك أيها الكاتب أنني فاسي من سلالة الدباغين والشرفاء وما كنت في يوم من الأيام أرى تفوق فاس على غيرها من المدن والأطراف، فإذا كانت فاس وريثة الإرث الأندلسي بعد أن كانت أولى مدن المغرب في عهد الإسلام، ودخول مولانا إدريس الأول إليها وبناء مولانا إدريس الثاني لها بما شهده ذلك البناء من استقدام الصناع المهرة في فنون البناء من الأندلس، فما كان كل ذلك ليجعل منها مدينة أسطورة وهي مدينة أسطورة بالفعل كما لمدن أخرى أساطير ولجهات أخرى بعض الأساطير فاسمح لي أن أوضح لك إنما يقال عن كلام حول كراهية بعض المغاربة لأهل فاس إنما هو من قبيل الترهات، وما الخوض في إحصاء أحد الباحثين لعدة الوزراء الذين تعاقبوا على الحكومات التي عرفها المغرب، ومنذ الاستقلال وإلى اليوم ليكون عددهم بانتمائهم إلى فاس يفوق كل عدد ما هو إلا لقلة شغل لهؤلاء الباحثين ولتكريس لتعصب إقليمي ضيق أمام نسيان دور الأمازيغ في رفضهم للظهير البربري، وتحرير البلاد فما علا الفاس سوى

حدو بسلام أو موحا وحمو الزباني، ولا حاجة إلى أن نقارن الزعيم محمد بن عبد الكريم الخاطي بدور علا الفاس أو عبد الخالق الطريس، ففي تلك المقارنة كان سوف يهدر الحق التاريخي لكل واحد من هؤلاء وهو الغليان الذي عرفه الوطن.

أيها الكاتب ما كان للشوفينيه الضيقة أو توحده مع توحد قبائل الصحراء وزعمات تاريخية حضر فيها شيوخ قبائل الرقيبات وزعمائهم، فقد كان المغرب يقف بين قوانين استعمارتين هما فرنسا وإسبانيا ولا أحد ينسي اليوم أدوار رجال هذا الوطن في التحرير.

وأنا أقول لك هذا الكلام لتعرف أي جهة أنا أذهب فيها، وأي قراءة للتحولات أنا أقوم بها وتضمينيني في الفهم أو في عدم الفهم.

ولنتجاوز الآن مسألة الأعراق والقبائل والنخب الاجتماعية فقد أصبحت متجاوزة بالفعل، وما أنا أرجع إلى هذه التواريخ إلا لكي تعرف أن أي أحد من المغاربة لا يشك في نقاء دمه وهل هي مشكلة أقاليم فقيرة وأخرى غنية اقتصاديا أم أن ذلك الغنى والتنوع في الثقافات والأخلاق، وهو ما يمنحنا حرية أفضل في ذهاب نحو الجهات.

وهل هذه مشكلة؟

أقول لك أيها الكاتب أن مشكلة اليوم لا تكمن في هذا الزخم والتعدد في الهويات التي تشكل هويتنا الوطنية، ولكنها تكمن في بناء اقتصادي متحرر من الديون والتبعيات وفي غياب الرؤية التي لا تحل مشكلة التعدد بمصاهرات مصلحية لتسكن الأوجاع ومحاولات الانتفاضات، بل بعمق إستراتيجي جيو سياسي ينهض باقتصاديات الأقاليم ويحتفل بإنتاجها الثقافية وخصوصيتها المحلية.

وأنا لا أتحدث الآن كما كان يتحدث زعيم حزبنا السي أحمد عثمان، لأن وجه كلامه واحدة وأنا أردت أن أمتلك القول في كتاب يكون جامعا لما في الكتب كلها كما أعرف أنني لو خطيت في جمع الجموع الحزب لما كانت قد تجرأت على قول هذا الكلام، لأنه كلامي الخاص، لأن الظرفية السياسية كانت توجه الكثير من اللوم لأناس لم يفعلوا شيئا بالاستقلال كما كانت المصالح تستدعي خطابات انتخابية، وأنا ما كنت أنظر إلا إلى الجهات.

أرجو أن تحذف هذا الكلام من التسجيل، فهو فورة لعلها أرادت أن تميز بين الكلام الخاص وبين الكلام العام بين جهة الكلام وجهاته الست أو بالجهة السابعة التي أريد الوصول إليها.

في كلامي الخاص وذاكرة للطفولة وحماقات.

وفيه ما يجعل الذات الفردية في مواجهة مع الذات الاجتماعية وسياقات تشكلها في الواقع.

ولكن عذرا أيها الكاتب، فالحديث له شئون، وأنا مازال في فاس مع يزة وابنتيها مليكة وسعيدة فقد أفسد كلام العقل أو كلام السياسة أو كلام المودة، وما في السياسة كلام للمودة، عموما فأنا أرغب في تكسير حدة هذا الكلام المباشر البعيد عن الحكاية بتفاصيل أخرى أوردها للقراء الذين يستلذون بالحكاية إن كان هناك قراء سوف يقرأون هذا الكتاب.

واي كتاب؟

أهو كتاب الذي يحمع كل الكتب في كتاب واحد أم هو كتاب سيكون ككل الكتب؟ هل هو كتاب في السياسة أم في الاجتماع أم هو كتاب سردي تخيلي يحفل ويقلق الذات ومجتمعها؟ وهل يكون بذلك كتابا لأي كتاب.

الحكاية أيضا لها تمزقتها وهي لا تكون بغير هذا التمزيق.

ومن عجب أن الحكاية كلما توغلت في التفاصيل فهي لاتنظر إلى الحدوث في أونه إلا بنظر قليل وهي تنظر إلى حدوث في الذاكرة والتاريخ والتجليات والأوهام.

أقمنا في فندق زالغ لثلاثة ليال كان السي عبد الهادي خلالها يبدو متعجلا من أمره، ويزة تضحك وتقول:

– عارفاك خايف من مولات الدار.

وهو بعض على بنان أصابعه يقول.

– ويلي لالة يزة كنت أحب أدعوكم إلى داري، لكن مولات الدار .. وتقول يزة..

– هي لم تعرفك صديقا لزوجي فاتركها على راحتها.

وأضحك وأقول.

– أنا ضيف في بيتي لا قرار لي.

ويقول عبد الهادي:

– وهل ستبقى ضيفا إلى الأبد؟

فلم أدر كيف أرد، ولكن يزة قالت:

– الله يخلف عليكم ضيفاتكم كانت بالهدايا والفرح بكم فقلبي والدار داركم فعين اللوح. مرحبا.

بعد شهر تقريبا من تلك الزيارة ضاقت بي الأحوال ووجدت نفسي أسوق السيارة على غير الهدى، حتى أوقفت نظري لوحة الإشارات المرور كتب عليها:

فأخذت ذلك الطريق حتى وصلت إلى دار يزة، وقد عرفت الدار. كان السي عبد الهادي مشغولا في بيع وشراء في الدار البيضاء وكان يلح عليّ في أن أذهب ليوم أو ليومين كي أرتاح في عين اللوح وألا أشعر بالحرج من شيء، فيزة حبيبتنا وأختنا وقلبها كبير ومتسامح، وكان يقول لي عليك أن تنوب عني في كل شيء في أخذ الهدايا وفي الفرح والضحكات والسهر وسماع الغناء، وفي تناول ما لذ وطاب من أطعمة سوف تتفانى يزة بنفسها في إعدداها، فلعلك ترتاح وتغير مزاجك السوداوي وتعرف تتخذ قرارا لن تندم عليه.

هكذا جاء ذهابي مصادفا لم أحمل معي هدايا للبنتين والسيدة وتجرأت لأول مرة على طرق باب الدار.

ولا أختصر في الكلام، وأقول إن يزة قد استقبلتني بالترحاب وبقيت أكرر الزيارة لسنوات ومليكة وسعيدة تكبران تحت ناظري، وغربتي تزداد يوما بعد يوم بعد أن انفصلت عن تلك ما عدت أرغب في ذكر اسمها، وكبرت البنتان وصارتا تلميذتين في لبسي طارق بارور فكنت أزورهما في داخلي وأحمل لهما بعض الأطعمة وهدايا ولما كانت تؤاما، فما كنت أن أستطيع

أن أميز مليكة وسعيدة إلا وأنا أطلب من التي تحضر أمامي إن كانت وحيدة أن أتذكر اسمها، ففرحت بهذه اللعبة لعبة ألا يكون للإنسان من الصفات الخلفية إلا ما يجعل منه أسماء، ففرحت بها اللعبة لعبة يكون للإنسان من الصفات الخلقية والاسم ما هو يهب الصفات فكم من أشياء تعرفها الأسماء، وتتخيل من صفات ما قد تظنه ملائما لها فيكون الأمر كذلك أو لا يكون.

عجبا فقد جاءت لحظة مصادفة شممت فيها رائحة جسد مليكة الأنثوي، وهي ترتدي ثوب التلميذات المتشابه وصرخت ضاحكا:

- أنت مليكة.

فضحكت.. وقالت: كيف عرفت؟ أنت كنت دائما لا تميزني من أختي سعيدة.

قلت:

- هي رائحة الجسد.

أغرقت نظارتها في نظري، وقالت.

- أنت شممتها؟ هل رائحة جسدي تختلف عن رائحة جسد أختي؟

وأصابنا معا تيار صاعق لعله كان بالنسبة إليّ قد جاء على شكل نور لتلك الأنوار أشعت في الرؤس وهبط في وقت بارق وجيز نحو القلب، فاضطرب وجيه وارتخت الركبتان، ونظرت إلى عينيها فرأيت فيها ذلك الاختلاج الذي كان في عيني وأمسكتها من ذراعها فاستسلمت، وأخذتها إلى السيارة فركبت بجانبي، وسرت أسوق صامتا لا أنظر إليها على غير هدى حتى قالت:

– لي عمي عبد الحميد إلى أين سوف نذهب؟

فوجهت نظري نحوها بغضب، وقلت:

– عمك لا تناديني عمك بعد الآن.

وأحسست أني قد قسوت عليها، وقلت:

– ستعرفين كيف تناديني فيما بعد.

وقالت:

– لكن إلى أين أنت ذاهب بالسيارة؟

فقلت:

– إلى آخر الطريق.

أمسكت بذراعي، وقالت :

– الطريق لا آخر له.

فأوقفت السيارة ونظرت إلى عينيها نظرة متفحصة ثم بعثت بنظراتي تلك الرسالة التي ألح على إرسالها فأحطاتني بذراعيها، وقبلت فمي ووجنتي وفاجأها انطلاقي بالسيارة فقالت.

- إلى أين سوف نذهب؟

فقلت:

- إلى بيت يزة حيث سوف أخطبك منها.

فقالت:

- أنت حبيبي ارجعني إلى المدرسة في أزور وبعد أيام سوف نلتقي في بيت الوالدة.

انصعت إلى طلبها، ووقت نزولها من السيارة قبلت وجنتي وطبعت قبلة على شفتي، وقالت:

- حبيبي لن أنساك.

ونزلت.

سقت السيارة مزهولا بما ساقه إلى الحظ، وتوقفت عند البحيرة ايمزار، فرأيت البط والأسماك النافرة على سطح الماء وشممت رائحة الأرض لمبتلة بماء المطر، فتهيجت روحي للذهاب نحو الماء كما كنت في صغري أحس ذلك، وأنا أنظر إلى السماء من سطح منزلنا ساعة لم يكون قد أخذني الغم

فيتفرج خاطري لرؤية ألوان المغيب أو ذهاب السحب في السماء فاس أو زهور حزام لالة فاطمة الزهراء الذي يسمونه قوس قزح.

مازلت مولعا بذكريات الطفولة وهي تفسر في العالم فحزام لالة فاطمة الزهراء كان قوسا قزاحيا نراه من سطوح المنازل بين ما يكون غيما للسماء، وانفراجا تظهر منه أشعة الشمس، ولذلك زهور الحزام لالة فاطمة الزهراء ما كان يبدد من أسى عميق في النفس، فتتفرج الأساوير وتبتهج الأرواح، ويصبح لغزا مدبرا حكيما وفي هذه العلاقة بجهة السماء تعلمت أن أذهب بهمومي وشكواي، منتظرا ذلك الفرج الذي كان يأتي من جهة الجهات.

محنة الكاتب

رياح الأماكن
والجهات عصفت
والبرد الشديد في هذا الليث
الشديد الدخول بين البياض والسواد

لعلـك أيهـا الكاتـب تـدري أن موضـوع حـديثا مـازال يجـري فـي القطـار، وأنـا أسـافر مـن فـاس إلـى الربـاط وقبالتي تجلس تلك الشابة التي قالت اسمها ابتسام.

ولكن هل تسمح لي بحديث بيني وبينك لا تضمنه في هذا التسجيل وهذا الكتاب؟

هل يمكنني أنا أيضا أتعرف عليك وأسألك ما هي جهتك أو جهاتك؟

لعلنا الآن قد تصافينا وأصبحنا أصدقاء أو أن هذا التسجيل الـذي بيننـا قـد جعـل مـن صـدقتنا مـرآة، ولكنهـا لا تعكـس سـوى مظهر قليل لذاتي فأين هي ذاتك أنت؟

ربما لن يكون كتابي وحدي فهو كتابك أنت أيضا، وكتاب كل القراء.

وإذا ما بحث فيه بشيء من ذاتك فسيكون ذلك ملح طعام كله.

رفع رأسه نحوي فبدت لي عيناه ضيقتان كما كانت لحيته المدببة تجعل من وجه رسما من الرسوم أكثر منه كائنا حيا يمثل أمامي، وكنت أشم منه روائح الدهون الحمضية، وأفكر في أنه لم يقف تحت رشاش الماء الدافئ أو البارد لأيام خلت، وما كان

بإمكاني أن أطلب منه أن يدخل الحمام، ويغتسل ويأخذ من ملابسي ما يناسبه ليجلس نظيفا أمامي ويذهب نظيفا إلى مدرسة تلاميذه.

ظل ينظر إلى وآوقف آلة التسجيل، وقال:

–ما هو هذا الحديث الذي تريده بيني وبينك؟ وما كنت أحسب أنك سوف تسألني هذا السؤال.

فقلت.

– لماذا؟

قال:

– لأني نسيت فيما حكيته لي من حكايات.

صمتنا لبعض الوقت وسقيته كائسا أقبل عليه برغبة، وقد تضاءلت عيناه حتى صارت كثقبين في حجم ثقوب الإبر، وغدا وجهه بغير ملامح ورفع كأسه يطلب كأسا آخر فسقيته، وقال وهو يأتي عليها دفعة واحدة:

– ما سؤالك السي عبد الحميد؟

فقلت:

– سؤالي عن الحب.

قال:

- هل نبدأ من كيوبيد بن الملوح أم من شهداء الحب المنسيين؟

ضحكت وقلت له:

- ها أنت تصل إلى تاريخ جهة من الجهات.

فأغرق نظراته إلى الكأس، وقال:

- لكن الحب فكرة خلقها الإنسان ليتسلى بها وهي غير موجودة في الواقع.

أنكرت عليه ذلك، وقلت:

- هل الإخفاق في الحب هو ما يدفع الإنسان لأن يقول مثل هذا الكلام؟

لم يرد وظل صامتا يرشف من كأسه، وقد انكمش جسده وتضاءل وهو ينحني على بعضه وشعيرات لحيته المدببة تنسدل وتكاد تلامس المائدة الصغيرة التي وضعت عليها آلة التسجيل وبعض المقبلات التي لم يتناول منها شيئا فلم أعرف كيف أجعله يفجر ما في داخلي، ولكني سألته.

- متزوج؟

رفع رأسه نحوي، وقال:

- وحبط في الزواج.

استدرجته للحديث فأخذ يتحدث عن طالبة كانت تدرس معه في قسم الفلسفة، وكانت مناضلة مع القاعدين فاضطهدها البوليس ضمن حملة قمعية للطلبة، ولم تجد مكانا تختبئ فيه سوى بيته الذي قضت فيه أكثر من شهرين من غير أن تتصل بأهلها أو بأحد، تدرجت أحاديثنا من السياسة إلى الفلسفة إلى الحب.

كانت تنام على فراشي ولم اقترب منها في يوم من الأيام مخافة أن تقول إنني أستغل جسدها مقابل إقامتها في بيتي.

وأنا أيضا كنت لا أخرج إلا باليل لشراء الطعام والسجائر أو الاستدانة من أحد الرفاق لشراء هذه الحاجيات.

فجأة صارحتني بالحب، وأنا كنت مورطا مع عانس تجاوز بها سن الأربعين تمسكني من خانقي، وتمنع عني الهواء وبصراحة فقد كانت تعطيني بعض المال، ولكني قد قررت أن أواجهها بحبي لنوال ونوال هي تلك الطالبة، وهي زوجتي حاليا أستاذ فلسفة مثلي، رجولية وسلطوية عكرة المزاج على الدوام، وتناقشني بعنف في أمور الثقافة والسياسة وتسفه أفكاري، كما كنت تلميذا من تلاميذها وتنظر إليّ قصصي ورواياتي على أنها تفاهات ولو كان شيء من القيمة لكان قد التفت إليها النقاد كما

كانت تقول النقاد لا يشغلون وقتهم بأعمال الناشئة إلا ما كان من باب التشجيع، وحتى هذا التشجيع لم تحصل عليه أعمالي في رأيها.

لكنها قد رأت لي ثلاثة كتب مطبوعة وتباع في المكتبات والأكشاك منها كتاب واحد في الفلسفة عنوانه من هيكل إلى ماركس، وروايتان واحدة بعنوان ريحانا الأربع، والثانية بعنوان صخب المدينة، فقد اخذت تقول لي: أنت تحقق وجودك في الكتابة على حسابي، فأنا لم أجد الوقت لكتابة كتاب عن صورة المرأة من نوال السعدي إلى فاطمة المرئيسي، وكيف أجد الوقت وأنت تملأ طاولة الكتابة بكل هذه الأوراق ليس لي مكانا مناسبا أكتب فيه بعد إن لم تعد في فاس مقاه للمثقفين والكتاب كما كانت.

أنت لم تقرأ الروايتين فهما تطوفان في مطاف حول الذات ومجتمعنا كما يراه الكاتب لتقرأهما حتى لا يشوش بقراءتك لما على ما تقول ربما تقرأهما بعد أن تنتهي من عملنا إذا أحببت.

أعرف أن التجارب والأفكار تختلف، ولكنها أحيانا وعلى اختلافها تصب في مجرى واحد، المقلدون لا تجارب حارقة لهم تدفعهم نحو الكتابة والمجددون قد يكونون مجرد لاعبين

بالكلمات وبين التقليد والتجديد مسافة لا تكون فيها كتابة ناصعة إلا مع حرائق والخسارات والقلق، ومحاولة استعادة الوجود بغموضه في نصاعة الكلمات.

هل هذا ممكن؟

وهل لهذا السبب كتب كل كتاب العالم ما كتبوه من كتاب الموتى الفرعوني، وأناشيد إخناتون وكتاب الجحش الذهبي إلى يوربيديس وانتيغون واوديب وعنترة والمعري والسباب ونجيب محفوظ وهلم جرا، ودون أن تغفل من أعمال السينما والمسرح والتشكيل فهل هي مكتبة عالية تحفل كلها بهذا المكان؟

فما أنا فيه وما أنت؟

قلت إنك تعيش في هذه الغرفة في الفندق وفي كل كتبك تركتها في الفيلا للسيدة كنزة، فماذا فعلت بها؟

وماذا فعل أصدقاؤك بالكتب التي كنت تقرأها وتهديها لهم لكي لا يضيق بها مجال الغرفة؟

هي مكتبة عالية توجد في ذاكرة القراء لنا أن نضيف لها شيئا جديد فاعلا فلا حاجة إلى القراءة أو أن تفعل بأنفسنا شيئا آخر غير الكتابة؟

وأنا لا أخفيك أن روايتي رياحنا إلا ربع وصخب المدينة لا تدعيان الرهان على هذا الطلب، بل هما لا يمكن أن ينافسا أعمال العظماء من الكتاب، ومن أمثال غربيين ومشارقة ومغاربين، وهذا ليس تواضعا، بل هو إحساس عميق بتحد كبير لنصوص جميلة تظل تمارس سطوتها على الكتابة كما قد مارستها على القراءة، وقد كنت قد وضعت نصب عيني نموذجا أو مثلا أعلى في الكتابة لكان ذلك قد شل طاقتي أو دفعني نحو أسوأ درجات التقليد لا تذعن لمنشئات كتابها كما أعتقد، فهي انفجار اختلاج وفوران ودفق لحظة تنفجر فيها الأشياء، وكما هي تولد من جديد فاسمح لي عبد الحميد، فأنا لا أعرف كيف يفكر الكاتب فيما يكتبون، وكيف يستوحون حياتهم وتجاربهم فيما يكتبون حتى وقد حرصت على كتابة بعض الحوارات معهم واستشفاف معانيها من المعاني، فقد كانوا يتحدثون عن حياة أخرى لا توجد في نصوصهم، وهي بالفعل يمكن أن تضيء تلك النصوص ولكنها تضعنا أمام عتبات جديدة.

نتعلم إذن كيف نكتب من الكتابة.

لكنك تكتب على آلة التسجيل بصوتك الشجي، وهو يغضب ويتردد في الكلمات ويوزع اللحظات ويخترق الأزمنة.

أنت تكتب نصك بالكلام الشفوي فما دوري أنا؟

هل أسجله على الورق أم أتدخل فيه بالزيادة بالنقصان أم أمحو منه ما طلبت محوه أم أتملكه وأعشقه ليصبح جزءا من ذاتي واستلهامي لتفاصيل واقعية أو خيالية أكتب من خلالها رواية ثالثة لي وأسميها الخفافيش؟

يجوز وهذا ممكن إذا لم يمارس خيانة على اللحظة التي أمارس فيها العمل على الورق، أعني اللحظة تبتدي للكتابة تلك الأشيئا، وهي غير ما كنت عليه، فيمكن أن أتكلم بلغة الكتابة عن الفضائح كل الفضائح البشرية التي يمكن السكوت عنها بحكم الأخلاق والمواصفات.

والحقيقة أنها بدأت تعتدي على بعض مسواداتي فأجدها أحيانا في قمامة الأزبال، وإن هي كانت من النساء المنضوبات تحت حركة نسائية نشطة في البلاد، فقد كانت تطمح إلى العمل السياسي، ولكنها تعمل في العمل الاجتماعي والحقوقي بقناع سياسي تلتقي مع نساء من الجمعيات يتركن أولادهن للرجال ليربوهن ويدخلن في بناء برامج يبحثن لها عن تمويل من الاتحاد الأوروبي، وكلها برامج تتحرك في اتجاه المرآة في البادية وتهريب

المرأة وتعرضها للضرب من قبل الرجل وهلم جرا، هاجسها هو تغيير مدونة الأحوال الشخصية وخطة إدماج المرأة في المجتمع، وأعداؤها هم الأصليون الذين احتموا بنصوص الشريعة وبداءوا يخطبون في خطبة الجمعة بالمساجد ضد الخطة، ويعقدون تجمعات المعارضين، ويصدرون بعض البيانات.

وأنا لو كنت أصغى إلى لما وجدت في سريرتي ما يعادي تحديث المجتمع وحق المراءة في الكرامة وحمايتها من جور الرجل كما تجب حماية الرجل من جور المرأة، ولكنها كانت تصغي إلى نفسها وتؤوال كل كلمة أتفوه بها حتى قبل أن اكمل كلامي على أنها معادية للمرأة، ولم تتجرأ على أن تتهمني بأن أحمل أفكارا أصولية، لأنها تعرف أفكاري وربما استخلصت ودون حجة على كلامي أنني مع الأصوليين لما كنت معهم ولا معها، بل كنت أفكر في خطورة حرب اجتماعية تقودها أطراف مسلحة بسلاح السياسة ومناورتها، وخشيت تكون ظريفة ككل حرب من الحروب.

لكني كنت أسمع بعض التعليقات في الحافلة أو المقهى أو في قاعة الانتظار لدى طبيب الأسنان، وبعض الرجال يتحدثون عن ضرورة إحداث جمعيات للرجال للدفاع عن حقوق الرجال،

فالمرأة صارت تضرب زوجها وتمنعه من الفراش، وتذهب بكل طاقتها المادية نحو الإفلاس، كما صارت تدفعه نحو اليأس من الحياة والنفور من الزواج، وبعضهم كما يقول اللهم إن هذا منكر، وبعضهم يقول انتقام المرأة من قرون العبودية والحريم، وبعضهم يرى أن السياسة تلعب ألاعيبها بشكل خبيث في تمزق عري الأسرة والمجتمع.

لكن نساء كثيرات لا يدرن بما يحدث قائمات من أزوجهن بالرزق الحلال ولو كان قليلا وخادمات ليبوتهن ولا يرين عيبا في ذلك، وأما الموضفات فأغلبهن مقهورات بعمل الإدارة وعمل البيت حتى إن واحدة منهن كما حكي لي صديق، وكانت لها خادمة في البيت متزوجة ولها أولاد ظلت تردد في اجتماع مجلس الإدارة، التوقيت يجب أن يتغير فهناك سيدات والسيدات يردن أن يذهبن إلى بيوتهن حتى تذهب تلك السيدات إلى بيوتهن، وهناك سيدات حوامل ولكن لديهن في البيوت سيدات حتى إن كن غير حوامل، فهن يحتجن إلى وقت من الاهتمام بأزوجهن وأطفالهن، فالسيدات تضايق بهذا التأخير الذي يتبعه انتظار الحافلة أو التاكسي، كما أن السيدات أنفسهن وبحكم سكنهن البعيد يخرجن من البيوت متأخرات ويبدأون مرحلة انتظار الحافلة، وهذه هي مشكلة السيدات عندهن

سيدات في بيوتهن وسيدات يطلبن من هذا الاجتماع أن يبث في موضوع.

أضحكني، ولكنه وصل كلامه من غير أن يضحك.

وطبعا وكما أنت عارف فمدير الإدارة سوف يرد على الكلام الطويل بكلام مختصر، وهو التزام كل الموظفين بالتوقيت الإدارى.

وعود إلى نوال فهي كانت تطرق أبواب النساء في البيوت، وتعقد التجمعات وتخطب حتى صارت أحلامها وكوابيسها أحلاما وكوابيس سياسية مع عدوانية كبيرة للرجل ولأقرب رجل منها الذي وهو أنا زوجها، حيث تجد المناسبة لتفجير أحقاد سياسية لا علاقة لي بها ولممارسة العنف ضد الرجل الذي هو أنا حيث أنا هو أقرب رجل إليها.

وأقول لك إن نوال قد فقدت أنوثتها وأعني رقة المرأة في نظراتها وحركتها، وكلماتها الرقيقة التي تفتح النفس لشهوة الحياة فصارت ميئسة لي وصرت سواداوي المزاج.

هل أقول لك إنني أفكر في زوج الحمام وزوج اليمام، وحتى في الأسد واللبوة، وفي أنواع الطيور والزواحف والثدييات وكل ما خلق الله من إنسان وحيوان وأتأمل العلاقة، وأنا أشاهد بعض الأشرطة التليفزيونية التي تحفل بعالم الحيوان وعوالم

البدائيين من سكان الآسكيمو والهنود الحمر، فلا أجد هذه الحرب الدائرة بين يوسف ونوال؟

كيف يمكن أن يولد الناس ويمارسون الحب في هذا الكابوس، وهل سيلدون في عالم الغد أطفالا أدركتهم الشيخوخة في طفولتهم؟

البراءة والضحك والسخرية وإطلاق الكلام على عواهنه قيم إنسانية لا يجب أن تموت في حياتنا اليومية، وكل شعوب العالم تقاوم الموت والفقر والمعضلات الاقتصادية بشتى أنواع البقاء والاحتجاج على سواء، البقاء بضمان بقاء أفضل، ولكن في كابوسنا نحن لا نضمن أي بقاء.

وهل أقول لك أيضا إنني في رعيان شبابي قد أصبحت حديدة صادئة لا بفعل هموم الكتابة وهموم المهنة والسياسة، بل لأنني تزوجت من نوال؟

ربما لأن همومها صارت تطفئ على هذه الهموم.

وربما أني لا أجد مجالا للتنفس أو لاستقلاليتي من سخافات بيت معمور تعلمناه به أن المرأة ضد الرجل..

وأنا حاولت أن أفهم لها نموذجت ولو على مستوى ذهني يبدوا قابلا للتحقيق في المجتمع، فتحدثت عن أشياء بديهية وسائدة أو متفق عليها أو هي قابلة للتفكير السياسي أو هي قابلة للتفكير السياسي أو الاجتماعي، وظلت تغرب الرجل في غربته الأبدية، وكأنه مصلحة من مصالح المرأة.

حقا فإن هذا الحديث ليس أدبيا إلا بمعنى أن يدخل في رواية الأطروحة، وهي رواية تحفل بقضية اجتماعية وتقدمها للقارئ بصياغة سردية متكاملة، بينما تحفل الرواية الاجتماعية بمثل هذه القضايا لتكون مرآة للواقع، وأنا لست أدري كيف سيكون الكاتب أهو سيرة ذاتية أم تخييل روائي أم هو هذا وذاك بما تحفل به السيرة والتخيل من شذرات ووقائع وأوهام لا أعرف، لكنني لا أميل إلى جعل الرواية شيئا تعلق عليه كل الأفكار، كما لا ميل إلى جعل الرواية مجرد حكاية أو حكايات لأنها تستوحي من الواقع وتعيد بناءه من جديد، والمشكلة في إعادة البناء ثمة انتقالات جميلة من مكان لمكان في مخيلتك، وأنت تزواج بين الحاضر والماضي بين الواقع والتاريخ بين الحلم وارتهائه إلى عوالم تتمزق فيها غشاوات الأشياء، لتبدوا الأوهام كحقائق ناصعة لها وجها والآخر من الحقيقة.

وكل هذا جميل السي عبد الحميد، ولكنه يحتاج إلى إضفاء طابع اللغة، وطابع التخييل وتشكيل معمارية عالم الرواية الفراغات والبيضات لها أهميتها من حيث هي إفساح فرصة للقارئ لكي يمارس حضوره في القراءة البانية من جديد لعالم الرواية وبتأويلاته وأسئلته الخاصة، وهو قلق على كل حال، قلق مضاعف بين الذات القارئة، وفي حالة هذا الكتاب فأنا وأنت نعمل معا على امتلاك المواد أو المواد الأولية التي تصوغ عالم الناس والحياة والمجتمع والتاريخ، لا أعرف أهو عالمك أم عالمي، أم هو عالم مشترك بين الناس وخاصة جيلكم الذي عاش تحولات الواقع من الاستقلال إلى اليوم، وأما جيلنا فهو لا يمتلك هذا الزخم كله، ولكنه يمتلك زخما آخر لتجربة معيش آخر اجتماعي وثقافي لعبت فيها التغيرات العالمية دورا كبيرا.

ما تقوله أنت وما أقوله هو مجرد بوح لا فائدة لنا من ورائه، وهو مجرد فسحة للكلام.

مجرد استراحة قد تعود بعدها إلى كنا قد بدأناه.

جيلنا قد تكون تجاوز الوجودية إلى الماركسية، ولكنه بالفعل لم يكن يدري طبيعة الجسور التي تصل بينهما في إطار

منظومة التفكير التي سادت بين الأربعينيات والسبعنيات ودعك من هذه الأمور، ولكنه هو التمزق والضياع يأخذان اليوم صورة هذا الوجود لا وجود له في شيء.

لعلك كنت تتوجه بالكتاب نحو التفلسف في مسألة الوجود الإنساني، وما أردت لهذا التفلسف أن يتحول إلى سقطة كلامية، فحاولت أن تلجأ إلى الحكاية، وعلى ما كنت حماياتك تسكنه في الزمان والمكان فقد أردت لها عمقا رمزيا يذهب بها نحو جهات الإنسان، ونحو ما سميته بالجهة السابعة التي اكتشفت فيها قارة جديدة للوجود الذي يختصر الوجود.

ولعلمك فأنا لا أرتاح إلى صديقك ممولاي عبد السلام محرز ولا إلى جلسات ذلك الصالون الكئيب في نادي الفروسية، وأفعل ذلك من ذلات حياتي هروبا من بطش امرأة تسكن معي في الدار، ولم يعد يربط بيني وبينها أي ربط عاطفي أو جنسي أو مؤسساتي، فالحمد لله على أننا لم نكن بنتا ولا ولدا، كما أصارحك بأن زيارتي لك هذه وجلوسي أمام جهاز التسجيل، وأنت تتحدث لم يكن رغبة من رغباتي فأنا أحب مجالسة الورق وآلة التسجيل، وعلى عالم الورق أندهش، لكنني اكتشفت

الجلوس أمام آلة التسجيل وأمام صوت صاحب صاخب مثل صوته هو أمر له طرافته ومعناه.

في البداية كنت كما أراك ثقيل الظل حاسبا بجهالتك أنك تمتلك تجربة فذة لم يعشها أحد قبلك ولا بعدك.

ثم جاهدت وأنا أستمع إليك محتملا كثيرا من الصبر والشرود عما كانت تقول حتى أنك تنسج للحكاية خيوطها العنكبوتية وصرت أنا الذبابة التي تصطادها الخيوط ذلك العنكبوت.

هي لعبة مسلية.

فأنا لم أرتبط معك بواجب مهني أو أخلاقي، ولكنني أستمر معك في العمل تبديدا لفراغ هائل في حياتي، فناوال مزقت كل حبال المودة والحب بيننا لندفعها نحو رجولية لا معنى لها، ومع دفعها عن حقوق المرأة وإيمانها بالمساواة فقد استبدت لراتبها الشهري، وأصبحت على مشاريع خاصة بها ولا تتعلق بشئون تدابير البيت مستغلة قول الله تعالى "قوامون على النساء"، وآراء الشريعة في هذا الباب وعلى تعارض ما كانت تمارسه معي ومع توجهات أفكارها التي كان يجب أن تكون إشعاعية في مجتمعنا، فقدد نسيت الحب والعناق وكلمات الغزل وخلق الألفة وتحطيم

جدار برلين حتى وقد تحطم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.نسيت أن لها جسدا وقلبا ما وضع في صدرها إلا ليخفق لرجل لي، أنا زوجها بالتحديد لن تعطيني شيئا من الحب وبراتبها وأصبحت تدخل وتخرج كما تشاء، وتحاسب من تريد، الرجل من خلالها يثبت ذاته أنها كانت تعود ومعها كثيرا من مشاعر الحقد والعدوانية وكأنه قد عادة جريحة من حرب، وتريد أن تحقق انتصارا ولو صغيرا، وهي مبارزة كل يوم بينما أكون أنا في حاجة إلى إنعاش الرواية وإيقاظ شهوات الجسد والاستمتاع بملاحقة تفاصيل الأشياء تحدث وتتأمل الأفكار، وهي تولد وهكذا فما يعود لي شيء في هذه العلاقة ولا أخفيك أني قد ندمت عليها ولا لم أجد منها مخرجا يوجب عليّ حقوق مالية ليس لي منها شيئا، والحب لا يوجد هكذا فالشارع معروض أمام الناس، والمواخير لم تعد موجودة كما وأنا كرجل كباقي الناس لي صبوات وحنين وأحلام وهي تعرف الوضع، وتجعل منه حصارا شديدا على أنني لست ممن يلقون بأنفسهم في أحضان أول امرأة لمجرد الرغبة، وأنني لا وقت لي أصرفه في البحث عن الحب فوقتي كله موزع في التدريس والكتابة والقراءة، ولكن هذه الأشياء على أهميتها لا تجعل من الإنسان سوى راهب لا كنيسة له إلا إذا ما تسع العالم وأصبح كنيسة تحرم فيها العلاقات بين الذكر والأنثى،

حيث يضطر الراهب بالاعتراف بأحلامه التي خانته، وعلى غرة منه، وأنا لست راهبا وهل أنا فقدت نوال إحساسها بتلك الصبوات، وذلك الحنين فقد صارحتها بالسؤال، ولكنها ردت عليّ بان شأن جسدها وليس شأن جسدى.

هل ندمت عن التخلي عن تلك العانس؟

لم أندم فقد كان طموحي أن أتعايش مع امرأة تمتلك العقل والعاطفة والثقافة والحس السياسي الشيء الكثير.

كنت راسم صورة لامرأتي في الخيال لا أجد من صورة نوال وهي صورة تلك تبتدي أمامك على أسوأ حال.

وطبعا فقد أبدوا مع هذا كله معاديا للمرأة حتى وحاجاتي إليها لا تعدلها أية حاجات، وقد كنت أشتهي ألا أكون مثقفا أو كاتبا أو مدرس فلسفة وأن أحيا حياتي كباقي الناس مع امرأة تبتهجني بمباهج الحياة، أرى فيها ضوئي وظلامي دنياي كلها وعالمي وأحلامي التي لن أحلمها مع غيرها.

لكن هذا كله تبقى المرأة طيف الخيال ما دامت لا توجد في الواقع إلا على هذه الصورة نوال.

أنا مثلك لم أجد المرأة إلا في الأحلام والأغاني وحكايات تاريخ منسي أو متداول.

وأجدها قريبة مني في مكان والزمان ولكنها تبعد.

وأنا مثلك لست داعر ولا زير نساء، ولا أرغب في أن تبيعني جسدها، ولست شهوانيا إلى حد المرض، مرض ذلك الكوميسر الذي حكم عليه بالإعدام بعد أن تقيأ محاموه قيئا أبيض وأصيبوا بالإغماء في قاعة المحكمة حكم عليه بالإعدام.

لست سوى ورق أبيض أو رمادي عليه يتجلى عالم الكتابة وفي كل هذا العالم تتجلى كل هذه المعالم والمعاني ومعان أخرى وغيرها.

فأنا سلطة الكلام.

أنا المكان وتاريخه.

أنا الريح والغمام وامرأة كل هذه المستحيلات.

أنا الحديدة الصائدة التي حدثتك عنها وأرجو ألا تعود إلى مناداتي بالكاتب، فما خلق أحد كاتبا ولا مفكرا وإنما نحن حيوانات اجتماعية في غابة قوانين قديمة مدينة رقم تاريخ البشرية كله لم يتم التواضع عليها حتى وهم يسمونه قوانين وضعية.

اسمي يوسف يوسف الطاهري، وقد كرر عليك مولاي عبدالسلام محرز هذا الاسم عدة مرات، وبقيت تناديني بالكاتب، وأنا أشعر بمذلة يلحقها ذبون بكاتب عمومي، فأرجوك الله يخليك ناديني باسمي يوسف يوسف.. يوسف الطاهري وتذكر أنني لست كاتبا عموميا، ولا أكتب تحت الطلب، وإن كان ما بيننا هو تجربة أضعف من خلالها من معيشي وتعلمي من تجارب الآخرين، وقد تصل إلى درجة الكتابة أو لا تصل إليها وحالما أعايش الأشرطة وأفرغها على الورق فسأجد لها من تجربة المعيش ما قد يوحي لي بتجربة الكتابة، وإذا ما استشعرت ذلك فأسوصغها صياغة جديدة عبر اللغة والأسلوب والتخييل، وإن كان كل ذلك فوقي طاقتي فسأتخذ قراري بإحراق كل أوراق على أن أعيد إليك الأشرطة لتفعل بها ماتشاء.

هل هذا ممكن؟

هل اتفقنا؟

وتنهد وقال:

– كتاب مندورا لكل الجهات، وهي تجربة مغرية بأن أتخلى في الكتابة عن اسمي وأمنح طاقات الكتابة للجهات.

سقيته كائسا وقلت له:

– تابع السي يوسف تابع.

لكنه شرب الكائس دفعة واحدة، وأخذ كل الأشرطة التي كنا قد سجلناها ووضعها في جيبه وهم بالانصراف، فنهضت وأمسكت به من ذراعه برفق، ونظرت إلى عينيه فكان فيهما دمع يكاد أن ينفجرا ولما لا طفته وأعدته جلوسا قال لى:

– كنت سأذهب لمسح هذه الأشرطة، أنا لست موظفا عند أحد، أنا كاتب، وأعتز بما أكتب.

وقدرت مشاعره، فقلت له:

إذا رغبت في مسح الأشرطة فهل نتفق أنا وياك على ذلك؟

لكنه نظر لي نظرة صارمة، وقال:

– لا لا يمكن سأرتكب غلطة وأنت منعتني منها.

ولما شرب كأسه قال لي: تركت لها أن تتصرف في الراتب الشهري، كما تركت لها الفراش الزوجية، وأعطيتها حقها في أن تعيش عالمها وتحمل أفكارها، كما أمسكت بشيء لتصنع منه موضوعا للنزاع، وإلا وكنت أتركه لها لكنها لم تقو على دخول عالم الكتابة، فجعلت من عالمي مع الأوراق موضوعا لاستفزازها بتسفيه ما كتب وهي تقرأ منشورا، وصدقني ففي الكتابة أجد

عالما بديلا عن الصداع الرأس مع التلاميذ، وعن تفاهات وأحاديث المقاهي وعن تشنجات نوال في المطبخ وعلى مائدة الطعام وحتى قبيل النوم وخلال التعليق على الأخبار.

وأنت كنت قد سألتني في أول اللقاء بيننا عن المصادر التي أستقي منها تجربتي في الكتابة، وقد ظننت جاهلا فقدمت لك جوابا سهلا فقلت لك إنني أستقي تلك التجارب من الحياة والحياة كلمة عريضة فضفاضة قد لا تحيل على الخصوصية من الخصوصيات، ولكن قد تألفنا واستمتعت إلى صوتك الذي هو صوتك وحدك ومع اختلافي مع الحزب السياسي الذي تنتمي إليه فحياتك تستحق أن تعاش مرة أخرى في الكتابة، وكأنك تبحث في انتروبولوجيا عن الكائن وصيروته كأنك تقرأ حروب السياسة اليوم بقراءة قبائل وعشائر الأمس أم أن الإنسان هو الإنسان، تاريخ واحد يتكرر في العيش والصور والذكريات ولا أدري، ولكن تذكر أن الموت واحد، وأن موتنا هو موت الآخرين.

إلي ذلك الحد توقفنا عن الكلام، فقد أخبرني يوسف الطاهري بأن نوال تراقب عن بعد علاقتنا، وتتهمه بأنه قد أصبح كاتبا عموميا وحديثيا معه عن عملنا يؤثر على مزاجه أحب أم أكره، وقلت له: هل نتوقف عند هذا الحد؟ فقال لي وهل لديك

من مزيد؟ ما هي النهايات التي تريد أن تصل إليها؟ وإذا لم تكن هناك نهايات ميلودرامية فهل تريد أن تفكر في نهاية محتملة يفترض فيها القارئ بدايات لقرأءته للكتاب؟

لم أدر كيف أستمر في الحديث على المسجل، ونسيت أين كنت قد توقفت عن الكلام، ولما رأى الصمت والارتباك في نظراتي قال لي:

– نخرج الآن إلى نادي الفروسية، وفي الغد نواصل الحديث.

وطاوعته فما تكلمنا في الطريق إلى النادي، وأنا أسقي السيارة وما أبدي ملاحظة، وهو يراني أداعب حنكي الذي كان يحمحم وأنا أطعمها قطع السكر، وحفنة من الزبيب كنت قد خبأتها في جيبي ثم دخلنا صالة النادي، وما كان مولاي عبد السلام محرز في مكانه المعهود، فانفرجت أسارير يوسف وجالسنا صامتين إلى المائدة فأتانا النادل بالمشروبات التي شربناها، وكأننا نشرب من الشجرة الزقوم، فقد كانت ثمة ما تم يحف بالمائدة لا ندري طبيعته، ولكننا كنا قد استسلمنا لإرادته وأجوائه وطقوسه، قد غدت أمام ناظري صور الخيل والفرسان المعلقة على الجدران لا توحي بأي جموح، وقد غدت باردة الألوان لا معنى لها، فنظرت إلى يوسف وكان ذاهبا في ذهابه

يغرق ناظريه في الكأس التي أمامه، وقد ضاقت عيناه وبدت لحيته المدببة الهزيلة الشعر تحت الأضواء المكان، طلبت صحنين من الطعام للعشاء، فاعترض بيده أمام النادل، وقال:

– صحن واحد للسيد.

ثم قال لي للنادل ينصرف:

– إذا لم أتناول عشائي في الدار فسوف تتهمني بأنني قد بعت كل مواقفي مقابل عشاء في المطعم، وأنا لا أستطيع أن أتناول العشاء مرتين.

بعد حين قلت له:

– وما هو العشاء الذي سوف تتناوله في البيت؟

فقال:

– سباغتي وأنا من سوف يحضرها للعشاء.

جاء النادل بالاسكلوب الذي كنت قد طلبته واقترحت على يوسف أن تجعل منه مجرد تطعيم للفم، فما أراد أن يقترب منه وتركت الصحن على حاله ثم غادرنا النادي وتواعدنا على اللقاء في الغد في الفندق، وفي نفس الموعد.

حالما طرق الباب في موعده ووجدني منحيزا من امره وأمري، ولكنه دخل الغرفة وهو منشرح الخاطر وبادرني بقوله:

- يلامس فعلنا ما يفعله المرأ مع زوجته.

فعجبت بكلامه، وقلت:

- هل رغبت فيك؟

فقال:

- طبعا هي التي رغبت وأنا استسلمت لرغبتها.

لما جلس فتح آلة التسجيل، وقال لي: هات ما عندك السي عبد الحميد، فلقد كنا في عين اللوح، وأنت كنت تحكي عن علاقتك بملكية أو ربما عن حزام لالة فاطمة الزهراء الذي يسمونه قوس قزح.

عود على بدء

الأماكن الجبال
والجبال مراس
والمراسي أوقات للكلام

صمت لحظة، وقلت عليك أن تتأمل هذه الدروب الوعرة التي أخذتني إلى مليكة، وقد أصبح يبدو لي أن الحب أن يجعل كل الأعداء أصدقاء ومن السفلة أناسا منحضرين في السلوك والعادات، ومن الشر ما يتلطف به ويتم احتواؤه ليصبح خيرا للإنسان والإنسانية.

فالحب هو الجهة التي يمكن أن توجد بين الجهات كلها لتفصل كل البون بين الجهات، وستقول إن هذا الكلام رومانسي وأن الشر بشري يبقى، كما هو رغم هذه اللحظات الرومانتيكية التي أنا أصدر منها هذه الأفكار، وأقول لك أنا لست من الجبابرة الذين يجعلون الحب وسيلة لتمكن من عروشهم الملوكة أو الإمبراطورية ولست ممن يجعلون من المرأة اقترابا من ركوب مطايا ليست هي مطايا الروح والجسد، وإنما هي مطايا أخرى لحرب قد تعقد معا معاهدات للسلم أو التجارة قد تفتح لها طرق وأبواب والديانات قد تسود وتحكم فأنا عبد الحميد العارف بكل هذه الجهات، ومن اطلاعي على تواريخ الصفقات والحروب والمعاهدات وتواريخ الأنبياء وبشارات وخيبات الجهات التي أحدثك عنها، وأنت لا تدري إنني أتحدث عن التواريخ الجهات

بل عن حاضرها في زمننا هذا وإن كنت لا تدري فما مصير أهذا الكتاب السي يوسف؟

فجأة مليكة تحضر في أحلامي وهي تلم شظايا جسدي الذي كان قد تبعثر بين الريح والرماد وبين طفولتي في فاس وبين أقاويل علماء القرون وبين السقايات التي يجري فيها الماء والدروب المعتمة والليالي المطيرة والاختلاط المخلوط بالماء في تواريخ منسية بين المكر السلاطين وترهات الحوادت وبين ما تجلت لي فاس وما هي عليه من صعود وهبوط، ولكن أجمل ماكان يحف في ذلك الصعود والهبوط هو ملامس النساء التي لم ألمسها وأنا في طريق البحث عن جدتي لالة زهور، فهل جاءت إلى مليكة من قمم الأطلس الشماء لتمنحني بكارة أعيد بها بكارة اكتشاف الأشياء؟

ولكن لا تتعجل.

ففي النتائج ما لا تبوح بهه المقدمات كما في شم رائحتها ما بدا لي أنه لا يفصل بين الثوب والجسد.

ثيابها وجسدها كانا رائحة لا يمكن أن تخطئها حاستي كما كنت أمسك بشعرها وأتشممه وآخذه إلى جهتي فأشم فيه روائح الحناء والقرنفل، وما كان شعرها أشقر بفعل ما يمنحه لون الحنة،

بل كان شديد السواد كله شعر أمها يزة أسود في أسود في أسود كغابة من سواد ينسدل على كتفيها وعنقها المشرب بالحمرة، كما هما الخدان والشفتان المثمرتان، ولكنه مع ذلك السواد يضيء بأضواء التواريخ ويرق بما لا ترق له تلافيف الصخور الصماء في المغارات وهي يتفجر منها الماء، ولما كنت أتشممه لما كنت أبحث له عن رائحة، كما هي رائحة الجسد التي شممتها من المسام والخلايا، فوجدت أن الرائحة تأخذني إلى الجهة الغربة التي أستشعرها الروح قبل أن يستشعر الجسد وأن الكائن وما أستطاع أن ينجرد عن زمانه ومكانه فهو يخترق كل الأزمنة والأمكنة ليحيا حياة طويلة الأجل حتى مع ما فيها من القهر والمعناة والمرور بين المطرقة السندان.

وهي كلها لحظات لكنها لحظات يزهو فيها المرء بما يراه، ففي كل أحلامي بمليكة كنت أخرج من الزمان والمكان وأحيا معها في رحاب لا حدود لها، وأنا لا أصدق أن الموت يمكن أن يفرقنا.

ما رأيك السي سيد؟

لعلك نسيت أننا الآن في رحلة القطار أنني في هذه اللحظة أواجه صمت ووجوه ابتسام.

هي ذكريات والاخابيل تأخذني إلى البديات الأشياء؟

وقد كنت أذهب في ذلك الأخذ، كما لو كنت أمسك بحواف الأسوار الجارحة، وأنا أتردد في الاقتراب من مليكة فما كنت أحتاج فمن يقول لي خذها إليك، وتذكر أنك تتوجع في الوحدة ولا امرأة يمكن أن تؤنسك على كثرة من حولك من النساء فلا امرأة تضاهي مليكة وابتهاجها وبما كان يتحمل أن توقظه من نار في العروق.

مالجسد وهو يتوحد بالجسد ويشعر ويشعر بحضوره فوق كل شيء؟

كنت أرتمي في ماء البحيرة بنظري وأنا أرى الحرائق تشتعل فأقول لنفسي لا تخف وكن خفيفا كالظل.

تقترب مني مليكة حتى تميل بجسدها على جسدها، فأشتم عبق رائحة الأنوثة الفواح رائحة الفواح رائحة فاكهة برية لدادر كيف أسميها وقد أردت أن أشم رائحة تلك الفاكهة في جسدي.

لكنها كانت تبتعد أيضا.

كل ذلك كان مجرد حلم حلمت به، وأنا أرغب في مليكة وأنتظر أن أخطبها من أمها حلم آثرت أن أقوله لك حتى تعرف

إلى أي حد أحببتها، وقد أردت في الحلال كما أردتها قريبا مني على الدوام.

ذهبنا أنا والسي عبد الهادي إلى عين اللوح وجالسنا يزة على كؤوس الشاي، وهي لا تمرح ولا تزيد في الكلام كعادتها معنا وسألتها عن مليكة وسعيدة، فقالت: وشأنك بسعيدة أعرف أنك تسأل عن مليكة وأدركنا أنا وصاحبي أنها قد عرفت كل شيء.

أراد السي عبد الهادي أن يفاتحها بموضوع طلبي اليد كريمتها المصونة مليكة التي ملكت على كل شيء كما ظننته سوف يبتسم ويستعمل العبارات المألوفة في هذا المقام، ولكن يزة كانت هي التي بدأت الموضوع فاختصرته أن مليكة تحب عبد الهادي، ولكنها لا ترغب في الزواج منه، وقد صارحتني أنها لم تتزوج رجلا غيره وأنا لم أفهم من كلامها شيئا، ويمكن أن تسمعها منها فلعلها لنا تشرح ما تريد، وقالت ما عرف أنا هو أن المرأة إذا أردت رجلا يتمنى الزواج منه، ولكن أمرها عجيب ومحير كلمتها طويلا ولم أفهم كيف تكون تحب عبد الهادي، ولا ترغب في الزواج منه، فجالسها السي عبد الهادي، وأنت في مقام والدها وأسمع كلامها وبصرها في الحلال فالرجل يريدها في

الحلال زوجة له كما قالت: وهي قالت تريده حبيبا ولا تريده زوجا.

خفضت رأسي مفكرا ولا أجد ما أقول، لكن الأمل في الأمل في غقناعها مازال يراودني ولما اختلى عبد الهادي بمليكة عاد إلى جالستنا، وهو مدمدم الوجه ونظراته كسيرة، وقال علينا أن نؤجل الموضوع إلى وقت آخر.

في طريق عودتنا إلى فاس كان لا يحب أن يسرف في الكلام وأنا كنت متعطشا في أن يخبرني بكل كلمة قالتها مليكة وأختصر كل كلماته في أن مليكة تحبك ولا تريد أن تتزوجك.

بعد يومين من الأرق والعذاب ذهبت إلى أزور وأخرجتها من الدخلية بدعوة أنني واحد من أقاربها، وكانت بشوشة تضحك وتقبلني وتقول:

- اشتقت إليك يا حبيبي فلماذا تأخرت عليّ:

ولما فاتحتها في أمر الزواج قالت:

- لقد أخذت قراري سأحبك وحدك حتى الموت، ولكن لا حاجة إلى الزواج، وقلت لها:

- الزواج يضمن لنا أن نكون دائما في القرب من بعضنا.

فضحكت، وقالت:

- لن نفترق ولكن أنا في الدراسة، وأنت في شغل التجارة ولا حاجة، لأن نعيش تحت سقف واحد خوفا من أن تسأمني أو أسامك ذات يوم.

وها هو الوشم على أرنبة الأنف وشم لا يمكن أن يمحى، لأنه شكله المسماري منطبع في القلب والعين أعرفه من بين الأشكال كلها، وأحفظ خطوطه هو شوم يزة وابنتيها مليكة وسعيدة أراه مرسوما أمامي في كل مكان وحتى في الفراغ، وأقول لنفسي أنا واهم وأعلل هذا التوهم بأنني قد اشتقت إلى رؤية مليكة وقضاء أيام في عين اللوح تاركا هم السياسة ومكائد التجارة، وحتى أنسي عزلتي في غرفة في الفندق.

كانت مليكة هي التي اتصلت بي بالهاتف وأخبرتني أنها قد أبلغت عبد الهادي بأن يزة مريضة مرضا شديدا، وأنها تريد أن تودع الأهل والأصحاب، وأجهشت بالبكاء وتوسلت إلى أن آتي لزيارتها أنا وعبد الهادي بأسرع وقت ممكن، وتذوقت من مكالمة الهاتف ملوحة ذلك الدمع، كما أصغيت إلى تلك الشهقات وعدت أشم رائحة الأنوثة، وأصابني دوار خفيف وما هي إلا شاعات حتى وصلنا أنا وعبد الهادي إلى عين اللوح، وكانت يزة مسجاة في الفراش الوثير لم تقو على أن ترفع نظرها إلينا لترانا،

فانحنى عليها وأجهش بالبكاء وعانقتني مليكة، وامتزج الدمع بالدمع، وأرخت رأسها على كتفي وأشهقت وزاد التصاقها بي، وهي تذرف دمع وتشهق كأنها تحتمي بي من سقوط محتمل وكان عبد الهادي قد وضع ركبتيه على الأرض وجثا حتى صار قريبا من يزة التي كان صدرها يخفق خفاقا يجعلها على مرأى منا يصعد ويهبط، وقالت لي مليكة هامسة في أذني خذه معك إلى الغرفة المجاورة وأمسكناه من ذراعيه، فتناهض مليكة وتساعده على أن يخطو ملكنه ما إن استقر جالسا على فراش تلك الغرفة المجاورة حتى أدركته نوبة بكاء.

وفجأة نهض وصار نحو الفراش يزة، ووقف لوقت طويل ينظر إليها وعيناه غائبتان وصدرها يصعد ويهبط ثم بدا، وكان صحوة عقل قد ادركته فقال للبنتين والطبيب: لماذا لا نأخذها إلى مصحة في فاس أو رباط أو حتى إلى فرنسا؟ ما لها العزيزة في تلك اللحظة بدت يزة كأنها تسمع كلامه فرفعت نظراتها محو عينيه وحركت سابتها حركة لا فعاد إلى جيشانه، وأخذ يشهق حتى أخذت شهيقه وزفيره، وبدأ كأنه سوف يختنق وسعيدة تصفعه صفعات خفيفة على خديه وتقدم له فنجانا القهوة حتى يخف ذلك الارتعاش الذي عم سائر جسده، وقالت له مليكة

الحبيبة ماتت وما بقي خصاها، ولا طبيب ولا دواء راحة ما قبل الموت.

قضينا ليلة بيضاء وكان عبد الهادي يغفوا لبعض اللحظات ثم ينهض جالسا، ويضع يديه حول وجه ويجهش بالبكاء.

وقبيل الفجر أعدت مليكة فنجانا قهوة وقدمت لي واحدا لقد جفاني النوم لعله نام أو هدأ على الأقل وسعيدة نامت، وأنت يجب أن تؤسيني فروحي، تكاد تزهق من فرط القنوط، وعد اللحظات وذهبنا أنا وهي للأطلال على يزة فكان صدرها مايزال شديد الاضطراب والخفقان وعيناها غائبتان، وقلت لنفسي إذا ماتت فهل تأخذ معها كل ذلك الغناء؟

جاءني صوتها وهو ينبوع من حنجرتها ليخترق كل الجبال المحيطة بعين اللوح مارا بكل القلوب والأرواح ليكلمها بالجراح وغدوت في أسى على أن تصبح حنجرتها محشوة بالتراب، ثم نظرت إلى عين مليكة الكحليتين الواسعتين، وقلت هل يتخطفها الموت إلى جهته فعانقتها، وطفرت الدموع من عيني وكأني مليكة غنائها الذي كان يأخذني إلى الجهات كلها وأنا ذاهب مع امتداد الصوت وتموجاته وصعوده وانحنائه، ومرة قالت لي إن فريقا تليفزيونيا جاء إلى عين اللوح لتصوير حفلة تغني فيها يزة، ولكنها

قبلت أحياء حفل الغناء ورفضت التصوير والتسجيل الصوتي وألح عليها أعضاء الفريق، ولكنها تمسكت بالرفض، وقالت أنا أغني لنفسي، ولمن أحب ولا أريد الشهرة وأخاف على غنائي من أن يعتاد الناس، فيصبح شيئا عاديا ومألوفا، حاول أعضاء الفريق إقناعها بأن غناءها إذا ما سمعه كا الناس فسيبهج القلوب ويريح الأرواح، ولكنها حدثتهم عن السلطة التي تحشد المغنين والمغنيات في المناسبات الرسمية، وقالت إن هذا التسجيل سوف ينبه السلطة إلى غنائها لتصبح مدعوة للغناء في كل المناسبات وهي لا تحب ذلك ولا ترتاح إليه، وإكراما للفريق على أن يأتي أعضاؤه للعشاء وسماع الغناء من غير تسجيل ولا تصوير، ولكنهم اعتذروه وعادوه أدرجهم.

وقلت لها وأنت يا مليكة ألا تذهبين بغنائك نحوة الشهرة فصوتك قوي ومؤثر، وإذا كنت تخشين ما أخشيته أمك، فلنذهب إلى باريس لتسجلي بعض الأشرطة هناك؟

وقالت لي هل تجد في غنائي كل هذه الأهمية؟ أنت تسمع غنائي بإذن من يحب وليس كل الناس سوف يسمعوا تلك الأذن.

في الصباح شرب صاحباي كائسين من الوسكو وزار يزة في غرفته ثم عاد يطرح على مليكه وسعيدة موضوع حالتها على

مصحة، ولكننا عدنا أنا وياه إلى فاس في مساء ذلك اليوم وهل صامتة طوال الطريق، وهو أسهم ينظر إلى لا شيء وأنا أسوق السيارة التفت نحوه من حين إلى آخر فأره ولا يراني وإن أنا كلمته يبدوه لي وكأنه يصحوه من ثبات أو يعود إلى القريب من مكان بعيد وحالما اقتربنا من ناس قلت له لو كانت مليطة قد قبلت الزواج مني لكانت يزة قد فرحت بابنتها عروسة قبل أن تذهب إلى دار القضاء فلم يرد عليه.

ومرت أيام وأنا أتصل بالهاتف وهو لا يرغب في الكلام، وبعد يومين أخبرتني مليكة بالهاتف بأن والدتها قد ماتت وبدا وجهه النير أمامي جلالا بالبياض، قد أخذته الفجيعة فاشفقت عليه من البحة التي حبست صوتها، وقلت لها: لن أتاخر على حضور الجنازة أنا وعبد الهادي، ولكنها طلبت مني أن نؤجل الزيارة وتناولنا العذاء أنا وصاحبي. ورأى أن نؤجل ذهابنا إلى عين اللوح إلى حين وصول ٤٠، فحضورنا في الجنازة قد يطرح بعد الشكوك على أهلها من أخوال أو أعمام من سوف يحضرون الجنازة مع حلول أربعينية يزة، كنا قد رتبنا كل شئ مع سعيدة ومليكة، وتم بناء القبر وأحيينا ليلة عظيمة قرأ فيها الطلبة القرآن، وأكلوا وقسموه مكان فوقه من قطع اللحم وبعد العشاء قرءوا

شيئا من بردة الإيمان البصيري، إلى أن راح المدعون وخلا البيت من بعض النساء اللوتي كنا ينظفن أواني الطعام، ويرتبنا كل شيء في مكانه كما كان، وما إن تسللنا خارجا متلحفات بلحفات الصوف البيضاء حتى جاءت مليكة أن تدفرك يدا بيد تريد أن تدفأ به وهي تشكو من برد الليل القارس، وقالت لي إنها لم تتعش، وأحضرت صحنا كبيرا مليئا باللحم، وفوقه برقوق معسل ودعتني أن أشاركها في الطعام، وجاء عبدالهادي وفي يده كائس مششعة بالثلج.

أعطتني مليكة ذاك الحب كله، وظلت لا تكف عن الاتصال بي بالهاتف وسافرنا كثيرا، وأنا ألح عليها في طلب الزواج وأدخلها في حماي وأفرح بها وأجعلها تهدأ وتحلم وتنام في وداعة فأظل أراقب جفنيها، وشعرها يرتخي على الوسادة وأنفاسها تتلاحق منتظمة وجسدها النحيل الأسمر شبه عاري بجواري، ولكنها تغيرت معي، وصارت كثيرة السهوم والأطراق إلى الأرض بنظر كسير ما يلي إلى الصمت لا ترد على كلامي أوسؤالي، وبدت تهمل زينتها وحتى صوتها فقد مرة وضحكتها فلم أدر ما أصابها، وما عادت تتصل بي بالهاتف، وأن كلمتها أنا فهي ترد ببرود إلى أن قالت لي ذات مرة لا تعد الاتصال لي

السي عبد الحميد الله يخاليك وخالينا أحباب على بعد وتفكر في والدة الله يرحمها وذهبت إلى عين اللوح، فلم تسمح لي بالدخول الدار لولا أن سعيدة تدخلت بلطف، وألحت على أن أرتاح من السفر وآكل شيئا في داخل الدار قالت لي سعيدة: لا أعرف ما الذي أصابها وإياك أنها إن تظن على أنها على علاقة برجل آخر غيرك، فهي ما كانت لا تستبدلك برجل آخر، ولعلها من فرط حبها لك وخوفها من أن يموت هذا الحب أرادت أن تجعل منه أول وآخر شيء في حياتها وإلى الحد الذي وصل إليه.

وقلت لها يا سعيدة: إن طلبت منها أن تتزوج مرات وألحت عليها، وهي كانت تطلب مني برجاء ألا تطلب مني أعود بهذا الموضوع، وقلت لها يا حبيبتي الفيلا أخذتها كنزة وأنا الآن أقيم في فندق، وأتناول وجباتي في المطاعم وأنظف ثيابي في نصبة عمومية فهل يرضيك حالي؟ تقتلني العزلة وأنا لا أفرح إلا حالما التقي بك في اللقاءات مهما أعطيناها الكثير من الوقت، فهي مع ذلك خاطفة وتظل مجرد ذكرى نعيش عليها، حين أن نتدبر أمر لقاء آخر، وكانت تقول هذا أجمل ما في علاقتنا، هل تريد أن تسأمني في يوم من الأيام وتنطفئ نارك وناري؟ وأقل لها يا مليكة الحياة فيها أشياء كثيرة يمكن أن نستمتع بها، ولا نقدر

الآن أن نخطط لها وبإمكاني أن أبني فيلا أخرى وأسميها فيلا مليكة، ومعي من المال ما أجهز به تلك الفيلا لسكن لائق، وظلت تعترض وتقول الحب والمال يا حبيبي لا يلتقيان، أنا أيضا لدي مال كثير ورثته عن أمي ولا معنى أن أشتريك به كما تريد أنت أن تشتريني، ويكفي ما مضى بيني وبينك وعلامتك التي وضعتها على مكان خفي في جسدي لن يرأها أحد والحرائق تنطفئ الآن.

وأقول لك يا سعيدة إن أختك قد صارت طيفا يزورني في المنام أنا أستطيع أن أجعلها تنام بجواري في الفراش الزوجية، وهي على ما يبدو فضلت أن تبقى طيف خيال على أن تعيش معي زخم الحياة، فلعلها خشيت أن نتخاصم أو أن أشتمها أو تشتمني أو أعيرها بشيء لتعيرني هي الأخرى بما تراه جارحا أكثر في حياتي.

في آخر لقاء قالت دع الحب، ولا تنس اللمسة التي كانت ناعمة كريش نعام، ولكنها جارحة كمخلب النسر، وهناك قطرة من دمي وهناك بمائي وشهقاتي ودعني أشرب من دمك ما انهض به هذه حرائق اللية الأخيرة، وعضتني عضا مؤلما كي لا أصرخ وبكيت وأحسست أني سأخسر نفسي، وإن أنا خسرت مليكة

وما أردت، وها هي ترفض أن تسمح لي بدخول الدار، ولا تحب أن تسمع، نادتي الليلية في صمتي وعزلتي ووحدتي، ولكنا بكل ما منحتني من حب قد أرادت أن تصبر عذابي.

وتأسفت سعيدة وهي تبوح لي أن مليكة مصممة على الفراق نهائي، وقالت لي الدار دارك، ويمكن أن تأتي مع صاحبك عند سعيدة، وهل يمكن أن تنسى مليكة السي عبد الحميد، وأن تبدأ حياتك مع امرأة أخرى؟ فقلت لا يمكن وقالت لي سعيدة لا تقل هذا الآن فكل شيء يصبح ممكنا مع مرور الزمن، ونتساءل على كل حال، فغادرت الدار، ورجعت إلى فاس، وأنا طوال الطريق أعد نسيان مليكة من قبيل المستحيل، وأفكر في خطط لإغرائها أو إقناعها بأن تظل كما كانت مختبئة في حناياي بين أضلعي، وأنا أسهر على ذلك الوسن في عينيها إلى حين أن تدخل في نعاسها، ولكني كنت شبه واثق بأن كل حيل لن تنفع ولن ينفعني صاحبي، كما لم تنفعني أختها سعيدة.

بدأت أكتفي بواجبة الطعام في اليوم، وأنا أتصل بمليكة بالهاتف وأقول لها أنا جائع وأحب أن آكل من يدك حبيبتي فلا ترد، وتظل مع إلحاحي في الكلام تردد:
– ألو نعم أنا..

وتقطع الخط وأفهم أنها كانت تريد أن تقول: إنها ليست طباخة ولا بيتها مطعم عموميا، ولكن شيئا من أشفقها على قد جعلها أن تغلق الخط على أن تكون عنيفة معي وبعد محاولات استسلمت وأقنعني عبد الهادي بالنسيان، فعدت إلى ولعي أنسى معها ذلك النسيان لكي أتذكر تلكك الحرائق التي كنا نحترق بها بعد خمود نار ومليكة في فراغ غرفة الفندق بجسدها النحيف وهو يبتعد وأنا أتواطأ معها في الحلم أو الخيال بلعب يحوم حول الجسد باحثا عن لحظة أو كلمات مناسبة والجسد حيران وأنا أحترق والعين في العين، وكأننا في أرض فيحاء أو فوق ماء أوهلام كما يصير جسدنا من هلام.

تلك كانت هي الأحلام التي أحلمها كل ليلة قبل موت يزة وبعده حلفت لنفسها ألا تراني ولا أدري ما فعلته بنفسها في عين اللوح، كما لم أدر ما كان يأتيني به ذلك الحجار من كسل جسدي يقعدني في الفراش.

ومع انطفاء كلمات السياسة التي كان لها وهجها حتى قد عرفنا أنه مؤقت ظهر منافسون عتاة تواطأ مع حربنا، بينما ظل السجناء والمنفيون ومعهم قوى حية في العالم يطالبون بفتح ملف حقوق الإنسان ومعه ملفات التعذيب وقمع الرائي وغياب

الحريات كما ظلت الأحزاب الأخرى تنظر إلى المشهد، وبعض أجناحتها يرغب في مساومة الحكم على الدخول على السلطة بعد أن ضاق بدورا المعرضة، بينما كانت أجنحة أخرى لا ترى أي وفاق مع الحكم ما دام هناك معتقلون ومنفيون.

وما كنت هذه الحروب الساسية تقل أهمية عن حرب جسدي مع الزلة، ومضاء الوقت بين مشاغل التجارة وحروبها.

هل لك الآن أن أتوقف الة التسجيل حتى أعرف في أي جهة أنا الآن؟

لعلها جهة الكلام.

جهة أخذتني بكلام حيث أريد.

تعال إذن في الغد في نفس الموعد، وإذا أحببت أن ترافقني في نادي الفروسية فأنا سأكف عن الكلام في هذه الليلة، وأرجوا أن تعذر ما أتوقع أن يستبد بي صمت قد يكون هو أعلى درجات الكلام، ولم أكن قد تورطت معك في بدء الحديث عن هذه الأشياء لكنت أفضل أنا أقولها لنفسي في صمت هل يمكن لالة التسجيل أن تنقل الصمت إلى كلمات؟ وهل أنت تقدر على استنطاق الصمت؟ هل يمكن؟ تعال بنا أن نذهب إلى نادي

الفروسية فقد اشتقت إلى لوكي وإلى حمامتها واحمرار عينيها، وهي تنظر إلى وسأتركك مع ثرثرات مولاي عبد السلام.

اضغط على الزر وسأعود إلى عربة القطار صحوت على صوت آت من الميكرفون يخبر الركاب المتجهين نحو طنجة وتطوان أن يغيروا القطار في المحطة القادمة، فالتفت نحو ابتسام ورأيتها تنظر إلى فقالت:

– السي عبد الحميد أعطني رقم البروطايل.

وعجبت كيف عرفت اسمي فأنا سألتها عن اسمها ولم أقدم لها اسمي، وكانت قد نهضت وفتحت في وجهي مذكرة أخرجتها من حقيبة يداها لها الرقم وسجلته، وقالت وهي تضع حقيبتها من فوق الرف العلوي الذي كان فوق رأسي:

– وأنت لم تسألني لماذا أنا ذاهبة إلى نطوان؟

وقلت:

– خير إن شاء الله.

فقالت:

– الكونتربوند بضاعة سيئة التهريب السي عبدالحميد.

وضحكت وهي تحمل حقيبتها وتضعها:

– ويمكن أن أنفع في حملة انتخابية قادمة وسأتصل لأسأل عن زكريا.

فصرخت من غير أن أشعر:

– تعرفينه؟

فقالت:

– هل تخاف عليّ؟ أنسيت أنه في كندا يدرس على حسابك السي عبد الهادي، ولكن أنا تبقى على خير مهربة للسلع بين حدود الشمال وبين أزور وعين اللوح.

ولما أوشكت على النزول والقطار يتوقف تماما قالت:

– ماما تسلم عليك مليكة هل تتذكرها؟

أردت أن أنزل من ورائها وأتبعها لأتبين منها ما كنت، ولكني تسمرت في مكاني وأخذني الدوار، واشتد بي الخفقان حتى حسيت إن وجيب القلب سوف يتوقف في هذه الساعة.

عدت أتذكر وأشم أرنبة أنفها الممحو الذي كان ربما هو وشم مليكة ويزة وما عرفت هل تكون البنت ابتسام بنت لمليكة، وهي لم تتزوج فهل تكون ابنة لي من غير ان أدري بها طوال كل هذه السنين؟

كيف عرفت ابتسام اسمي واسم والدي ذكريا وما الذي كانت تقصده بكلامها عن الآباء، ولا يسمون أبناءهم بأسماء بيننما يذبحون للأولاد كبش العقيقة؟

لا أدري كيف وصلت إلى الرباط، وفي تلك الليلة كان صاحبي الذي كان قد تلفن لي، ويحكي تفاصيل مشاجرة عنيفة بيني وبين الرئيس فريقنا المعارض في زمن التناوب هذا وبين رئيس جلسة البرلمان ينتظر مني اتصالا أو زيارة، وما كانت بي رغبة لسماع شيء من ترهات تلك المشاجرات، فقد بدأت علاقاتي بالسياسة تطرح على أسئلة لا أجدها لها بعض الأجوبة أمام تشابك المشهد السياسي في البلاد، وزاد من فقدان تلك الرغبة مانا فيه من أمر ابتسام من صحتي التي تدهورت فأصبحت أنتظر لحظة سقوط أخير.

وأخذت غرفة في أحد الفنادق، واتجهت نحو الحانة، وقلت اشرب كائسا لأنظر فيها، على أن أفعل فقد حسبت ابتسام سوف تكلمني في تلك اللحظة كما كنت نادما على مالم تطاوعني به اللحظة من انهيار صحتي فلو نزلت وراءها فأخذت معها قطار تطوان حتى تبين منها ما يوضح لي ذلك الغموض.

رشـفت مـن الكـأس وفجـاءة رن جهـاز الهـاتف المحمـول وسمعت صوتها يقول لي:

– ألو نعم أنا ابتسام.

– نعم يا ابتسام أرجو أن..

قاطعتني وقالت:

شف الاتصال بزكريا في كندا واطمأن السي عبد الحميد.

فقلت من غير أشعر:

– على سوف أطمئن وهل هو بخير؟

وضحكت ضحكة خليعة، وقالت:

– هو بخير ولكن يريد الفلوس.

وقلت:

– وأنت.. من أخبرك بهذا الموضوع؟

فـردت لهجـة مصـرية حكـت فيهـا مـا يقـال فـي بعـض المسلسلات المصرية:

– عمر الدم ما يصير ميه.

حاولت السيطرة على أعصابي، وقلت لها:

– قولي لي من أنتِ بالذات وماذا تريدين؟

فقالت:

- أنا أخته ولن أقول لك بابا السي عبد الحميد، فقد التقاينا صدفة في عربة القطار، ولكن سأنادي ذكريا أخي حتى وهو ولد كنزة، وأنا بنت مليكة لأننا معا من صلبك السي عبد الحميد.

وقطعت الخط تلفنت لمليكة فبدت ناهضة من نوم ثقيل وقالت:

- شكون؟ خصك؟ اشمن رقم تتطلب؟

وقلت لها:

- أنا عبد الحميد.

فقالت:

- اشكون عبد الحميد؟

وقلت لها:

- يا مليكة اسمعيني البنت ابتسام دعيني أشرح لك هي كانت أنا كنت، والتقينا في القطار.

ولكنها قطعت الخط وجاءتني مكالمة أخرى من ابتسام، وقالت لي:

- لا فضائح السياسة لا تصلح لستر الفضائح العائلة ما كان عليك أنت تزعج امرأة مقهورة شاخت في عين اللوح قبل الأوان.

قلت:

- ابتسام الله يخليك..

فقالت:

- الحب السي والمالك السي لم أقل لك السي بابا؟

وضحكت ضحكتها الخليعة تلك، فقلت لها:

- ابتسام أنا صحتي عيان...

فقالت:

- شفت ياك أخويا زكريا في كندا ياك أنا غادية جاية بين عين اللوح والفندق بايعة شارية أيو ما عرفتني ما عرفتك غير اتلاقينا فالقطار.

قلت لها:

- ابتسام قلت لك أنا مريض و...

فقاطعتني وقالت:

- شف حسن ما تعمل هو أن تجعل رئيس فريقك يدافع عنا نحن المهربين والمهربات، ويجبر رجال الجمارك على ألا ينظروا إلى النساء منا والبنات كاعاهرات، الشرف قبل البكارة، وها عرق الوقوف عند باب الديوانة، وإن كان هذا الموضوع قد أثار فيك شيئا من كرامة الرجل فلا تخف على ابتسام، وخف على نفسك من صحتك العيانة.

كنت أستمع وأوجيب قلبي يضطرب، وأنا على حالة السقوط ثم قلت لها:

– أعطني رقم هاتفك كي أتصل الآن مباشرة، بعد قطع الخط.

فقالت:

– أنا أتصل بالتيلي بوتيك.

وقلت:

– سآتي غدا في الصباح الباكر إلى تطوان لأراك.

لكن الخط انقطع فلم أدر أن أجد ابتسام وسط حشود من العابرين الطريق بين الفنديق وتطوان، وجددت الاتصال بمليكة، ولك جهاز الهاتف كان غير موصول بالحرارة.

لا أدري كيف قضيت تلك الليلة في الرباط، وكيف عدت إلى فاس باحثا عن عبد الهادي، ليشير عليّ بما يجب أن أفعل وحالما التقيت به بدا في البادية غير مكترث بالموضوع، وقال لي أنا فقدت أعز الناس، وهي يزة كما تعرف وبعد الوفاة زوجها المرحوم لو كانت قد قبلت بالزواج مني، لكنت في أسعد حال، لكن بعد أن فاتحتها قالت ألا يبقى في هذه الدنيا شيء للناس يفرحون به من محبة غير الزاج قل إنك أخي، وانظر إليّ كأخت لك وأحبني كما يحب الأخ أخته، حتى وإن كنا لم نخرج من

بطن واحدة، وأنت فاسي وأنا بربرية ولكن لا كراهية بين أمة محمد عليه – صلاة والسلام – ولا أنا ولا أنت من المنافقين الذين كانوا إخوان الشياطين، فأحبني كما كنت تحب زوجي المرحوم فأنا كان لي إخوة كلهم ماتوا وما أحوجني إلى أخ أكثر من حاجة لم أفكر فيها لزواج واسمع كلامي السي عبد الهادي ليكون البيت بيتك وتكون كعم للبنتين وفي قلبي ما سأعطيه لك من محبة الأخت للأخ والعهد بيننا على الإخوة.

هكذا عني كل شيء كل طريق مطوقا بعهد الإخوة مع يزة وأنت السي عبد الحميد لكانت لي سلطة على مليكة لعقدت لك عليها عقد الزواج على سنة الله ورسوله، ولكنك كنت تركبني فما عرفت هل كنت تضاجعها في الأحلام أم أنك قد لمست جسدها بكل تلك النار الحارقة التي كنت تحدثني عنها؟ هل كنت تكذب علي؟ أعرف سفرك مع مليكة إلى إسبانيا وإلى مدن أخرى في المغرب، وكنت أعتقد أنك تفرح بها كابنة لك وأعرف أنها كانت تحبك حب المرأة للرجل، وأنا قدرت خوفها على ذلك الحب من الخسارات لم تشء أن تذهب معك فيه إلى حيث ينتهي فهل لمست جسدها بغير امرأتي؟ إذن كنت تخونني مع واحدة هي كابنة لي وأنا لا أصدق فدعني أتكلم مع سعيدة وأعرف منها تفاصيل الموضوع.

أصبحت أمام مشكلة أخرى وهي ما حدث من توتر علاقاتي بعبد الهادي الذي أصبح لا يرغب في مقابلتي، وعندما ألح عليه في البقاء يقابلني وهو متربص بي كل سوء ونظراته لا تلتقي مع نظراتي وكلماته قليلة ومتحدية بغضب أسئلة من قبيل ماذا تريد ولماذ ترغب في أن تعرف وإذا ما كان لم نتوقعه قد وقع، فماذا تتوقع فهل أخذتك معي إلى عين اللوح وتجدد طاقتك على الحياة أم لارتكاب هذه المصائب؟

وماذا فعلته بنفسك وبي وبمليكة وابتسام فهل أنت مرتاح؟

لكنه بعد أيام طلب مقابلتي، وقال لي ولأول وأهلة اللقاء إنه التقى بسعيدة وعرف منها كل شيء، وهي غلطة يجب أن تصلح.

وهو وشم على هذه الجذور.

وشم هو جذور امرأة كأنها نابعة من جذور التاريخ ومن جهات كل تلك الجهات.

وهو وشم كل الممشومات.

فإن كنت السي يوسف الطاهري لا تفرق بين جهة وأخرى فاتركني وحالي، ولا تستمر في تسجيل ما أقول ولا حاجة إلى

هذا الكتاب الذي سيكون ولا شك كتاب فضائح، وإن شئت في الأخلاق أو في الساية في وتواريخ غدر الإنسان بالإنسان.

ولا شك أن تستعجل النهاية ليس ليس قارئة، فأحيانا لا توضع خواتم للبدايات، خاصة إذا ما تعلق الأمر بجهة من الجهات أو بها جميعا فما بالك بالجهة السابعة التي حدثتك عنها، وأنا لم أعلمك الصنعة الكتابة فهل أنت تريد أن تطرق هذا المسمار بناهية محتملة أم إن هذا الاستئناس بيني وبينك قد جعل أمر عرضا سيما أنا أشعر بالإحباط أمام كل ما قلت وإنك ربما تشعر بالتلذذ بهذه الحكايات نفترض مثلا إنني قد اعترفت بابويتي لابتسام، وأن مليكة قبلت الزواج مني.

أو لنفترض طرق السياسة قد عاد يأخذني فنجح في هذه المرة في الانتخابات، ووصلت إلى مقعد البرلمان.

أو لك أن تتصور وفاتي في غرفة الفندق، وأن أخرج من جنازة أحد الفنادق سيعد شؤم على فندق وأصاحب النزلائه.

كما لك أن تفترض أنني قد أختفيت تماما من الأنظار وما عاد لي أحد يبحث عن سواك أنت، ربما لكي نصنع نهاية أخرى مختلفة عن هذه النهايات.

ويمكن فأنا أخبرك بنهاية لا تتوقعها وهي أنني قد التقيت البارحة بكنزة في مكان غريب عني وعن فاس، فأخذت تشتمني واتهمتني أنني أنا من كان قد خطف صندوق الذهب والمجوهرات والأوراق المالية وهربت به إلى أمي لالة خدود، لتخفيه في مكان لتنكر أمام الناس وسكان الحي أن الولد عبد الحيد قد جاء إلى الدار باي صندوق، وقالت الدرج الحاج رآك تستر عليك، لأنه كان يعرف أنني أحبك ومن هول ما سمعت فلا أدري من أين جاءت إلى يدي سكين طعنتها بها في القلب، ودعوت البوليس فجاءت سيارة الشرطة لمكان الحادث، وكان بها اثنان من معارفي فأشفقا على وتلطفا معي وقد رأياني ارتعش من الخوف.

واعترف ما فعلت وأنا أظهر لهما السكين ونظري لا يكاد ينظر إليها منكرا على نفسي ما فعلت وعجبا كما تتعجب أنت الآن لكوني عبد الحميد الذي لا ينهض دجاجة عن بيضها يقتل امرأة كانت زوجه له في السابق، ويعترف بهذه البساطة واستأذنني في وضع الكبل في يدي ثم قدما لي سيجارة، وأنا ارتعش وقال لي تنكر أمام المحقق وأمام القاضي في المحكمة، وسنعيد تصوير لجريمة هنا في عين اللوح، ولكننا لم نستحضر القتيلة من

القبر بل ستكون معك في المشهد امرأة تقول لك نفس الكلام لتطعنها بسكين من الخشب، ونحن نصور المشهد الجريمة ضحك أحدنا وقال:

– السجن للرجال.

فقال له الآخر:

– لماذا لم تذهب إليه وأنت راجل؟

وقلت في خاطري والسجن ألا يكون للنساء أيضا؟

سألتهما عن مدة الحبس في هذه الأحوال، فقال أحدهما:

– دافع عن نفسك وكلها خمسة عشر سنة أو حتى عشرين وتخرج بالسلامة.

وقال الآخر:

– نحن أصدقاء ولم ننس نبعت لك الطعام والسجائر.

قلت لنفسي إنني في سنين العمر، فكيف سأخرج من السجن وأنا في الخامسة والسبعين أو الثمانين، وتصورت أن العمر لم يهملني إلى هذا الحد وحتى وإن كان سيهملني فأية جثة تلك التي سوف تخرج إلى الحياة؟

ندمت لقول إنني لم أتجاهل كلام كنزة ولم أتركها تنبح ككلبة لتسير القافلوة وتبقي الكلاب تنبح.

وندمت على اللحظة التي أصبحت فيها قائلا أنا الذي لم يستعمل السكين إلا لتقشير قشر التفاح.

القتل يا صاحبي بعيد عن براءة الإنسان وهو أحيانا في لحظة توجد في جهة من جهات الكائن بما هي لعب أو سلوك لا إرادي أو خروج عن طاعة العقل.

هل أقول هذا الكلام للقاضي؟ وهل سيكون كلامي هذا الكلام للمحكمة مثيرا للضحك؟

وإذا ما قلت إن يدي تاهت أيها القاضي والمستشارون والمحامون ليست هي التي اقترفت الجريمة، بل هي يد تورثت ومنذ عصور سحيقة حاجتها إلى شهوانية الدم، وهي ليست يدي أنا بل هي يد كالقتلة وعبر التاريخ البشري، فحاكموهم جميعا باسمي ولا تنسوان أن أداة الجريمة لم تكن أبدا هي السكين، بل كانت للجرائم أدوات أخرى غير الرصاص أو ما هو مودن من أدوات الجريمة في كراريس يحفظها تلاميذ كليات الشرطة، وكان جريمة القتل يرتكبها الفرد ولا يرتكبها جماعة ضد أفراد أو فرد، وأعني بصريح العبارة، أن دولا كثيرة قد قتلت الأطفال والنساء والشيوخ في حروب وحشية غير متكافئة، كما أن أنظمة سياسية قد تخلصت من المعارضين عن طريق القتل، وإذا ما أردتم أمثلة

فأين هي جثة المهدي بن بركة هاتوها لتحكي لنا عن بروميل الذي ألقيت فيه حتى تتشوه ولا يغدو لها لسان تصف به عيني قاتلها هاتو كل القاتلة للمحاكمة والأنظمة التي يغتال فيها المعارضون لسياستها لا يمكن أن تكون لها أجهزة كهربائية نزيه حتى تبت في قضيتي.

وهل تتصورهم كانوا سوف يسمحون لي بأن أقول هذا الكلام كله؟ لكنني قلته رغم أنفهم ورغم المقاطعات والاحتجاجات وتأجيل الجلسة وما سموه بالمدالاولات وإحالة جسدي الضعيف هذا على التعذيب والاستنطاق من جديد.

ولن أصف لك الآن معاناتي للتعذيب، ولكن تصور أنني كنت أستمد قوتي من ضعف جسدي فهو ضعف القوة أو هي قوة الضعف، وكل أنواع التنكيل التي عانيتها التي يمكنني أن أفرد، ففي الكلام فيها فصل خاص مرير، وذو تفاصيل صغيرة وكبيرة فلك أن تترك هذه الأشياء لمناسبة الكلام آخر بيننا لأنني لا أحب أن تنجح بصمودي في وجه أعداء الحق والقانون.

قلت لهم قتلتها وهذا كان يكفي وما أمر يحتاج إلى كل هذه الزوبعة والكلمات التي تلفظت بها كانت على حق وهي

توسع نطاق الجريمة من جرائم الأفراد إلى جرائم الأنظمة السياسية، فماذا كان سوف يحدث لو أنهم قد تغاضوا عن هذا الكلام وبحثوا فيه فيما بينهم وبين أنفسهم دون أن ينكئوا الجراح؟

كنت سأنال عقوبتي الحبسية وأذهب إلى قضائها إلى السجن بكل بساطة فما كان أحد يسندني من الداخل أو الخارج، بل كان يسندني تاريخ دموي يبدء من قابي لقاتل أخيه هابيل، وهو تاريخ القتل حتى القتل شبح يلاحق الإنسان ليكون قاتلا أو مقتولا أو شاهد على القتل.

لست دمويا إلى هذا الحد السي يوسف بل هم الدمويون يدي بيضاء نقية وأنا لم أقتل كنزة وهي التي قتلتني بغير دم أو محاكمة أو ضوضاء في المدينة.

أنت صانع النهايات فماذا تريد من هذه النهايات المفترضة؟

هل تختارها أم تبتكر نهاية أخرى؟

وتصور مثلا أنني قد عدت طفلا صغيرا كما كنت في دارنا القديمة وقد أخذني ذلك الصعود، ولم تمنعني حلقة الدر منه،

وقد خف جسدي أو تلاشي فبقيت في ذلك الصعود بما يمكن أن تسميه روحانيا حي تسمايت وبلغت كل مبلغ في الوصول.

أو تصور أنني كما قالت جدتي لالة زهور قد صرت في أحسن الأحوال، وبعد تخرجي من القرويين مؤقتا جهته هي الأفلاك والنجوم أو صرت فرائضيا أبدأ دائما من الجملة المعروفة هلك وهالك، وترك ما تركيز عملي سوى على الورثة والعصبة ذو الكلالة، ورسمي لتقسيم الجداول تقسيم القسمة حسب الشريعة ولكل وما ورث إذا ما استعصت الأمور، فهناك من المشكلات ما يسميه علماء الفرائض بالحمارية والإكدارية وأسال علماء القرويين وشيوخ القرائض لشرحوا لك ما هي هذه المسائل، ولكن لا توجع راسي أكثر مما هو واجع فتسألني عن جهة الأفلاك والنجوم، وما كان أساتذتنا يسمونه بعلم التوقيت، والتوقيت ليس ليوم أو غد، وإنما هو توقيت نابع من جغرافية فلكية تهم العباد في أمور دنياهم.

كنت أحصل على نقطة ربع من واحد على عشرين في مادة علم التوقيت، وكانت نقطة غير سيئة على كل حال، فأستاذنا الشيخ العالم كان يمسك بمجموعة أوراق يضمها ويسمي أصحابها بأسمائهم ثم يقول لهم هاتوا أوراقكم واقتسموا مجموع

ما نالته وهو ثلاث أربع نقطة على عشرين، ولما كان عددهم سبعة أو ثمانية فقد اختاروا كيف يقسموا تلك الثلاثة أرباع على عشرين على عددهم وبدء أستاذنا الشيخ العالم بعلم التوقيت حاسما في موضوع، ولكنه بقي وحده عارفا بهذا العلم.

وأنت الآن قد صرت قريبا مني فما رأيك في هذا الكأس عليها تساعدك وتساعدني على افتراض نهايات أخرى محتملة لكائنات محتملة لكائنات هذه الرواية.

سأقول لك إن زكريا هو الذي أخبرني بموت نعيم بسرطان الكلى لما عاد من كندا من غير شهادة أو تخصص في شيء، وجاء يطلب مني أن أقدم له ضمانة لدى البنك، لينشئ مقاولة لتربية الدجاج، وهو إنما جاء لهذا الغرض وحسب وفقد رن الجرس الهاتف في غرفة فندق النخيل هذا الذي نحن فيه يوم، وقال لي موظف الاستقبال.

– واحد السيك باغيك:

فقلت له:

– اشكون هو؟

فقال:

– يطلب منك أن تنزل لمقابلته.

ولما نزلت وجدت زكريا وقد صار مدل الشعر إلى ما وراء قفاه ولحيته مدببة، وقد وضع عوينات عانقته، وكان صدره عاليا ويداه قويتان عند المصافحة، وقال لي:

– نخرج إلى المقهى.

ولما دعوته إلى الصالون الفندق ألح عليّ أن أخرج إلى مكان أشم فيه الهواء كما قال، ودون أن أشعر أردت أن أجمله فسألته:

– كيف حال أمك؟

فقال:

– أمرها لا يهمك السي عبد الحميد.

وعجبت للهجة الرجولية المتحدية ولم أدر ما أقوله، ولكنه راح يحكي من الفيلا التي باعتها كنزة ودخلت بثمنها في رأسمال في الشركة، وعن بشري التي بقيت أرملة، وقد كبر والد عزيز.

وفي المقهى طلب قهوة شربها دفعة واحدة من غير سكر، وكان يبتسم للفراغ، ويحرك رأسه إلى ما فوق وتحت، لا معنى له خلال ذلك الصمت الذي كان بيننا ثم قال:

– اتصلت بي ابتسام.

ورآني لا أرد فقال:

- هل كنت قد تزوجت هل كنت قد تزوجت أمها في السر أم أنها ابنة حرام؟

ولم أرد فقال:

- قل الولد حتى أعرف هل هي أختي أم أنها مجرد بنت سفاح؟

وأشفقت على ابتسام وزكريا يواجهني بنظراته فلم أتبين ما أقول ثم قلت له:

- أمك هي التي دفعتني لذلك.

فقال:

- وهل تعرف أنت إلى أين دفعتها؟

وقلت:

- هل جئت لمحاسبتي؟

فقال:

- أنت كنت قد تملصت من جلسات الطبيب النفساني، وظننت أنك تعرف بداخلك من يظن أنه يعرف كل شيء عن نفسه فكيف لي أن أحاسبه؟

وكدت أقول له وماذا تريد؟ ولكن هذا السؤال لا يطرح أب على والده، رغم تلك الظروف التي مضت وكأنه تفطن إلى ما في عيني فأخرج من الملف بعض الأوراق، وقال لي:

– نصفي موضوع ابتسام لأعرف هل هي وريثة معي.

وأصابني الذهول، فقال:

– نؤجل الموضوع فأنا أحتاج إلى ضمانة لدى البنك.

وذهبنا إلى البنك، فقدمت له الضمانات التي يريد ومنذ ذلك اليوم لم أره، وما عادت ابتسام تتصل بي بالهاتف.

جهة الكلام

لا ريح تحرك
هذه الجبال الراسية
ولا القناديل
تضيء هذه الجهات

جلست في صالة نادي الفروسية واحتسيت كأسين وأنا أفكر في دارنا القديم بضرب البشارة قرب شجرة التوت العريقة التي كان لا يطاولها أي بناء في الحي، وكنت قد علمت أن تلك الدار قد حولت لمطعم للسياح بعد أن ماتت الوالدة وبعدها من جعل منها ذلك المطعم.

ففي نهار هذا اليوم كنت قد نزلت إلى المدينة القديمة، ومشيت متظاهرا بالبحث عن جدتي التي كانت قد غابت عن الدار حتى وأنا أعرف قد ماتت وأن كل شيء قد تغير في فاس وقد رأيت البنات القيصرات الثياب لما فوق الركب وتضحكتهم الخليعة تختلط بدقيق المار، ونداءات البائع وفي الطلعة الصغيرة والكبيرة كانت البضائع ثابتة كانت تملأ الأرصفة، فصرت هبوطا نحو زجاج الحجر وعين الخيل، حيث كان بدأ أخوال أمي ثم صرت مع كرنيز وواد رشاشة والعشريين لأعود راجعا إلى دارنا القديم في دار البشارة كما كنت أرجع إليها من ذلك تائهة في الطرقات، وأنا صغيرة ولعلي قد استخدمت طفولتي بعد إنكار أو بعد نسيان غير جميل، لكن صورة فاس ما كانت تعيدني سوى ملامح مدينة توغل فيها الخراب، وبقدر توغل ذلك الخراب في فاس كنت أستعيد بهجتها من الذاكرة، وأحلم بأيام الأعياد

والمناسبات وبصوت الأذان وهو يتصدى من أعلى الصوامع وبخيرات سوق الرصيف وبأناس راحوا، ولكن خطأهم مازال على الطريق.

وكما تغيرت ملامح فاس فقد تغيرت دارنا العتيقة الذي كان موصدا أبدا صار مفتوحا يكشف عن الصتوان الذي أضيء بأضواء في النهار تعلو بقدراتها بزخارف مفتعلة لعلها من صميم فاس، ولكنها لا توضع في تلك المواضع في النبتاء، فقد كتبت على مدخل الصتوان لافتات بكل اللغات تقول:

الذوق الفاسي

فدخلت ونظرت إلى باحة التي كانت أمي تجلس فيها على فروة خروف وهي تعجن العجين، وكانت في الباحة موائد على خوانات صحون وأكواب من مختلف الأحجام أدركت أنها مخصصة لأنواع الشراب نظر إلى النادل، وقال:

– شيء حاجة؟

فقلت له:

– أريد أن أتناول الغذاء.

فبدا عليه الارتباك، وقال:

– المطعم محجوز للنصارى.

ولما رآني أتطلع إلى الحيطان وبهاء الغرف، قال لي:

– السيد براني؟

ثم ارتبك وقال:

– السيد من فاس؟

فلم أرد عليه، وقال:

– يمكن أن تتناول غداءك بسرعة قبل أن يأتي النصارى.

فوفقت بحركة من رأسي وأشار إلى بالمائدة فجلست، وقال:

– شيء دجاج محمر أو شيء ضاجين أو الغنمي؟

وقلت له:

– دجاج محمر.

فراح يطلب الطعام من الطباخ، واكتشفت أنه وصل الدار مايزال في ذلك القفص الذي كان فارغا من الطير، ولكنه الآن صار يحتوى أنثي وذكر يمام يتمقاران ويتقفزان فما صارت غرفتنا السفلية مطبخا، ولا شك أن يدخله إليها ماء والمجاري والهوائيات التي تبدد أبخرة وروائح الطعام.

ورفعت عيني إلى حلقت الدار، فخشيت على نفسي من إبداء لحظت ذلك الصعود، فالمحن قد خففت من ثقل الجسد، ولكن وزنه بسبب تلك المحن قد زاد فلو تصاعد فاسترد ساقطا متهاويا فوق هذه الموائد والصحون تطلعت بنظري إلى الغرف الفوقنية التي كنا ننام فيها أنا وأمي لالة خدوج الله يرحمها، وكأني قد سمعت من الصومعة مؤنس الغرباء وهو يحكي قصة سيدنا أيوب الذي صبر وصابر، وكأني قد سمعت صوت الجزار يعود من فزيع أول من الليل سكرانا، وهو يقول أنا من عنجي صندوق، وتراءى لي يا عباسي الأب عائد في ذلك الهزيع الأخير من الليل من الملامح، وهو يشتم الوطنيين ويحي فرنسا والفرنسيين.

وضع النادل أمامي صحن سلطة الفلافل بالثوم وزيت الزيتون قارورة سيدي على الصغير فقلت له:

- عندكم بيرة؟

فقال:

- هانيكين؟

- وقلت له:

- وإلا قارورة نبيذ صغيرة.

فقال:

- كروان القصر؟

وجاء بقارورة النبيذ فأزاح عن فواهتها خلاف الفلين، وصب لـي قطـرات فـي كـوب تـذوقتها وأشـرت برأسـي فمـال الكـأس وانسحب.

ولا أدري لو كان اليوم والدي سليمان الدباغ قد عاد إلى هذه الدار ورأى ما أرى وأمي لالة خدوج قد رأت مكانها الحميم وهو يتحول إلى ما صار عليها فهل كان سوف يصدقان؟

قلت هي الجهة المكان الواحد وهو يدخل جهات وهما سياح الأجانب الذين ريشمون من مكان روائح العتيقة ودون أن يدروا أن الجهة نفسها كانت لها جهاتها الخفية التي أصبحت الآن ظل من أسرار، فمن منهم يذكر أن هذه الدارٍ كان قد اشتراها سليمان الدباغ ليتساكن فيها مع تلك العروس التي كان قد رآها في حانة سيدي أحراز وخاطبها للتو لتكون فراشة وخاطئة وقرة عينيه؟

وضع النادل أمامي الطاجين ثم رفع الغطاء فصارت دجاجة كاملة محرة، وعليه زيتون وليمون وحلبة الرئحة، فأكلت وتذكرت طاجن اللحم الغنم باللقيم أو السفرجل أو القرنين، وقلت لنفسي يا حسر ولكني أكلت من ذلك الدجاج الرومي وقلت ربما يصبح

والـدي زكريـا موزعـا كبيـرا لهـذا الجـاج الرومـي علـى المطـاعم والأسواق.

وسرعان ما توافد النصارى فنظر إلى النادل، واقترب وقال:

– شيء تيسير؟

فقلت له:

– بلاش.

وأخـذت طريقـي صـاعدا حتى وصـلت إلـى سـاحة البطحـاء فأخذت تاكسي أعادني إلى الفندق لأخذ نوم القيلولة، ولكني لم يطرف لي جفن فقد تحول كل من أمامي إلى جهة من جهات فاس وقد اتسعت المدينة بامضيها في تلك الجات حتى صارت لها جهاتها السابعة وتحيرت وأمضيت الوقت إلى أن جئت النادي ودعيت حنكي العزيزة لوكي وأطعمتها بعض قطع السكر، وما كانت خولة في أسطبلها فعلمت أن مولاي عبد السلام يركب صهوتها في جولة من الجولات، وما شربت كأسي الثالث حتى أقبل على مستبشرا وضاء الماحية، وقال ضاحكا:

– خولة ركبت بي في المعابر.

وقلت له:

– هنيا لكي بروكبها مولاي عبد السلام.

فبداء ساهما وقال:

– خولة هي التي تحس بتلك النار فتحمم، وتشكو إلى نارها.

وبعد مضي وقت جاءنا يوسف وهو يدخل النادي وفي يده كتب أثقلناها، وتبين أنها نسخ لكتاب واحد فقدم لي نسخة ومولاي عبد السلام أخرى، وظل صامتا قراءت على الغلاف الكتاب عنوان:

الخفافيش

قرأت من صفحتها الأول ما كنت قد بدأت بتسجيلها على الشريط لابتسام ويوسف وقال:

– هذه هي النسخة الأولى التي استخرجتها من المطبعة.

ونظر مولاي عبد السلام نحوي مبتسما، وقال لي:

– مبروك.

– فقلت له:

– مبروك للكاتب.

فالتفت يوسف نحوي، وقال:

– ولكني لم أثبت عليه اسمي وقرأنا على غلاف اسما غريبا وهو اسم إدريس الأصفر:

فقال:

- هو اسم مستعار.

وقلت له:

- ولماذا لم تضع اسمك أو اسمي على الكتاب؟

فقال:

- هو كتاب موجه للقراء وأنا ليس لي فيه شيء سوى ما نقلته من شريط التسجيل وهو ليس كتابك الذي أردت أن تكتبه.

فقال مولاي عبد السلام:

- ولكنه قصة حياته.

ورد يوسف:

- أي منا يستطيع أن يكتب قصة حياته والتفاصيل تنقلت منها وتضيع وقلت له:

- بكم طابعت هذا الكتاب؟

فقال:

- الناشر تكلف بنفقات ولم يعطيني حقوقا على النشر.

وبدأ مولاي عبد السلام منتشايا فقال ليوسف:

- وهل تكتب لي كتابا عن قصتي مع خولة؟

فأشاح يوسف بوجهه، وبعد صمت قال:

- إذا كانت خولة هي التي سوف تحكيها هل يمكن؟

- وانتهت تلك الجلسة وأخذت معي نسخا عديدة من رواية الخفافيش، وعدت إلى الفندق، فقرأت شيئا منها واسترجعت كل ما كان من حديثي عن الكائن، وتوغله في كيونونته وهو يذهب نحو الجهات، وتذكرت أنني كنت ناقص عقل، وإلا فلماذا لم أكف عن الكلام؟

هل أنا هو عبد الحميد الباغ أما إدريس الأصفر، أما يوسف الطاهري؟

لكن يوسف ينشر كتابه باسمه كما أخبرني.

ولا شك أن اسم عبد الحميد الدباغ هو الاسم المستعار.

كان موعدي في الغد مع يوسف الطاهري في نادي الفروسية، فانتظرت فلم يحضر ولاحظ مولاي عبد السلام ما ظهر عليّ من قلق ومرت أيام، وأنا أنتظر يوسف وهو لا يأتي حتى سألت مولاي عبد السلام عن مكان سكنه أو الثانوية التي يدرس بها فأبدأ حياته، وقال لا يعرف شيئا من ذلك، وكان يلح على خلال تلك الأيام بالسؤال.

- ما رأيك في الكتاب؟

فأرد عليه:

-لم أقرأه بعد.

- ومرة قال لي:
- السيد عبد الحميد الكتاب معتبر، ولك ما كنت أعرف عن حياتك وتلك الأيام مع المشومات.

فقلت:

- أي مشومات؟

فقال:

- يزة ومليكة وابتسام فأنا قرأت الكتاب في ليلة واحدة.

فاكتفيت بالصمت، ولكنه ظل يلح عليّ في السؤال فقلت:

- تلك حياة إدريس الأصفر وهو حر فيها.

وبدأنا نتداول أمرا غريب أمر غياب يوسف وهل يمكن يكون شيء قد دهاء عن الحضور.

وقال لي مولاي عبد السلام سأبحث عنه، ولكنه في لقاء كل نساء ظل يؤكد أن يقع له على أثر.

وعاد مولاي عبد السلام ينبش في تفاصيل صغيرة عن كنزة ومليكة وابتسام وزكريا، يريد أن يشبع منها فضولا لم يشبعه ما قراءة في الكتاب فقلت له:

- ألا تصدق شخصيات عاشها إدريس.

قال:

- ولكن إدريس هو اسم مستعار.

فقلت:

– إذا أردت أن تعرف الحقيقة فتلك أوهام واخيلة لحظات التسجيل.

ونظر إلى نظرات استنكار، وقال:

– هل كان ماحكيته مجرد خيال؟

وقلت:

– ربما هو خيال ممزوج بالواقع.

قال لي:

– هل كنت تكذب على الة التسجيل؟

قلت:

– كان لابد من ذلك الكذب الأبيض.

– ولكنك حقا كنت زوجا لكنزة وأنت بالفعل تقيم بفندق النخيل.

– وهل هناك امرأة واحدة في العالم بهذا الاسم أو فندق بهذا الاسم؟

بدأ الارتباك على مولاي عبد السلام، وقال:

– وإذن فأنت لست عبد الحميد.

وقلت:

– بل أنا هو ولكني لست عبد الحميد الذي تعرفت عليه في كتاب الخفافيش.

كنت قد سحبت من البنك مبلغ عشرين ألف درهم، ووضعتها في ظرف، منتظرا أن يأتي يوسف حتى أسلمها إليه، وقد أخذت مع الغلاف كل يوم إلى النادي فلا يأتي وأخذ موضوع غيابه يشغلني وبدأت بإجرء بعض التحريات للاهتداء مكان عمله أو سكناه وكاد ينقطع الرجاء في الوصول إليه إلى أن كنت خارجا من الفندق، فصادفته يدخل للبحث عني صافحني ببرود، وقد نظرت إلى عينيه فبدأ عليهما تعب أيام طويلة من جاء النوم كما قدرت وترافقنا إلى النادي، وهو لا يرغب في الكلام فكان يسير، إن شيئا أمامه يجذب إليه.

جلسنا في الصالة وعدت أنفاس وجهه تحت الأضواء فكانت نظراته كسيرة والاصفرار باد عليه، وبعد صمت قال ألم نتفق على أن أكتب سيرة حياتك؟

لم أدر ما يعنيه بهذا السؤال وعلاقته بما يشعله كل هذه الأيام، وقلت:

– ليس بالتحديد أنا كنت مشغولا بما يقع للكائن في الجهة السابعة.

وقت أن رأيت تظراته قد تملكها شيء من الاضطراب والغضب أضفت.

- هي سيرة أخيلتي وأوهامي يجوز ذلك.
- وابتسم وقال:
- الآن فهمت فكل السير تنطوي على قدر من الكذب.

وسألته:

- وأين طالت غبيتك في هذه الأيام؟

قال:

- كنت أرى مرايا حياتي غابة من الأشجار تسكمها الخفافيش.

طلبت منه أن يوضح لي الأمر فشرب الكأس التي وضعتها النادل أمامه دفعة واحدة وقال:

- قرأت الكتاب وأشعلت على الحرب.

عرفت أنه يقصد زوجته نوال، ولكني تجاهلته ذلك حتى لا أقدح في تلك النار ما يصل منها، حيث جلسنا هذه في صالة النادي، وظل الأسى في عينيه وهو يشرب.

كرهت أن يقرأ الناس صورة عن هذا الفشل اليومي إلا إذا كانوا سوف يستأذون أو سيجدون فيه شيئا حيث فشلت حياتهم، وما كان يهمني أن أختصر حياة الناس في الفشل، فالحياة يرغب الجميع في أن يحياها، وعلى ما يترجع الإنسان فيها من مرارة

ومجمون من ينتصر أو يسعى نحو حتفه حتى وإن كان يحيا في أحلك اللحظات.

وأنا في وقت مضى كنت أحب أن أتوب عن الناس في الحياة النيابية، وأتدخل لمناقشة ميزانية الدولة، وأناقش قضايا السياحة والعقار، وما ينزل على البلاد من كوارث طارئة وما له علاقة بخروقات الحريات العامة، وغير ذلك وها أنا لا أقدر على أن اتوب عن الناس في شيء حتى في النقاط تفاصيل حياتهم المعذبة اليومية وفي أن أبني ملجأ خيريا فوق خرابة من الخرابات يحضن المعاقين أو أطفال الشوارع أو العميان، خوفا من أن يأتي رجل آخر من هذا الزمان يسرق صندوق ما تبرعت به من مال، وهي لحظة خوف طارئة رغم أن ما كان قد وقع في ذلك الزمان تكرار اليوم مع مؤسسة محمد خامس للتضامن، حينما ذاعت بعد الأخبار عن الرجال السلطات الذين سرقوا من الفقراء أطعمة قدمتها لهم المؤسسة كمساعدة، واضطر الناطق باسم المؤسسة والحكومة إلى إذاعة بلاغ يتهي إلى العموم خبر فتح تحقيقي حكومي في الموضوع، والتحقيق لم تنشر نتائجه ولا شك أن لصوص المال الذي وهب للفقراء سينتهون إلى نهاية الحاج الجزار أو إلى نهايات أخرى يمكن أن تتخيلها.

قلت هي لحظة خوف طارئة، فاللصوص يوجدون في كل مكان وزمان، ويمكن أن أفكر في هذا المشروع الخيري، لأن ما عليّ من مال قد أصبح لا معنى له وهو زائد عن حاجتي الشخصية أنا من تعود على اتفاق قليل لإقامة في فندق ضغير، ومن يكتفي بوجبة واحدة في اليوم ولن أقسم مالي على زكريا وابتسام لسبب واهد وهو رغيتي في أن يغوض كل واحد منها تجربته في معترك الحياة، فابتسام تتاجر بالتهريب وزكريا صارت له محصنة لتربية الدجاج، ولكن على أن أشاور رجل قانون حتى أعترف بنوة ابتسام لي وانتمائها الشرعي لي كاب لتحمل اسم العائلة الدباغ حتى وإن كانت لا تعرف شيئا عن هذه العائلة ولن أترك للوارث ما يرث، فلربما كان بناء ملجأ خيريا سوف يخرجني من الحياة غرفة الفندق إلى حياة أوسع اتساعا فيها مع أطفال الشوارع أو مع العميان أو المعاقين، وربما بعد انطفاء تلك النار التي كانت حارقة للجسد ساجد في المشروع الخيري ما يلي ندائي للذهاب في دجهة واحدة على الأقل من تلك الجهات الست وحالما أمشي فيها فهي التي سوف تحدد اسمها ونعتها وصفتها ولن أخاف على نفسي ساعتها من الشك في امتلاكي على الأقل لحهة واحدة، وحتى وإن كانت لها جهاتها التي كانت قد قادتني إلى الجهة السابعة.

ظل يوسف جالسا أمامي وكأنه في مأتم إلى أن جاء مولاي عبد السلام، فارتحت لمجيئه الذي قد يفرج ما تكاثف من سحب سوداء على جلستنا.

بعد ملاطفات وأحاديث أخرجت الظرف الذي يحتوي على عشرين ألف درهم وأظهرته أمام يوسف، وقلت:

– أرغب صادقا في أن تقبل هذا المال.

فتغيرت نظرته إلى الظرف وقال:

– آ السيد عبد الحميد هل نسيت العشرة؟

وقلت:

– ما نسيت.

فقال:

– لكني عاشرت بيتكم القديم في درب البشارة، ووالدتك لالة خدوج وجدتك الحاجة زهور، و ...

فقلت:

– هذه أمور مضت وطواها النسيان.

فقال:

– ولكني عشتها أفضل مما عشتها أنت لأنك عشتها ونسيتها أما أنا فقد احترقت بها وأنا أصواغها في كتاب الخفافيش.

وقلت له:

- اسمع يا ولدي وكفاك من هذه الأوهام وهاك آجر ما فعلت.

- وظننته سوف يغضب ويقول إنه ليس كاتبا تحت الطلب ليستجيب عن جلستنا فنعيده إليها بعد بلطف واعتذار، ولكنه ابتسم وقال:

- السد عبد الحميد سأخذ هذا المال، وأنت تعرف ما سوف أفعله به.

نظر إلينا مولاي عبد السلام وقد وشت نظرته بأنه سشك فيما صار بيننا من أسرار.

وقلت:

- يا أخي يوسف افعل به ما تشاء.

قال:

- سوف أتحرر من رجل في مثل أمره ومن التحقير والستائم اليومية.

ثم ضحك وقال:

- ومن عشاء السباغتي الذي أحضره كل ليلة وأكله كواجب.

نظر إلى مولاي عبد السلام، وقال:

- هل صار بينكما ما لا أفهمه من هذا الكلام؟

وقال لي يوسف.

– أنا لـم أكتب شيئا عـن حياتي الخاصـة في القصـص والروايات التي كتبتها ولكن حياتك تشبه حياتى.

وتدخل مولاي عبد السلام فقال ليوسف:

– وهـل لـك جهـات أخـرى، أنـا جهـة هـي خولـة والسـلام وإذا احببـت أن تكتـب سيرة فخولـة هـي التـي تسـردها إذا كنـت أنـت تعرف لغة الخيل.

وقلت:

– الكاتـب كمـا عليـه أن يعـرف منطـق الطيـر عليـه أن يعـرف لغـة النبت ولغة الماء ولغة الخيل.

أخذ يوسف الظرف ووضعه في جيب سترتي وقال:

– هل تريدني أن أطلقها؟

فقلت:

– من هي؟

قال:

– نوال أنسيت؟

فقلت له:

– ومن هي نوال؟

فنظر إلى نظرة نكراء، وقال:

- ألم أقل لك إنها قرأت الكتاب وأشعلت على النار؟

وقال له مولاي عبد السلام:

- أنا عرفت على عبد الحميد فلا تتكلم بهذه الألغاز أمامي.

ضحك يوسف، وقال:

- كان السيد عبد الحميد، يحكي لي بعض الأشياء، وطلب مني أن أحكي له بعض الأشياء قال إنها ستكون ملح الطعام أو هي الطعام كله، ولكني وضعت الملح، حيث لا طعام أو هو ملح وضع على الجرح.

وقال مولاي عبد السلام:

- ملح امرأة؟

فقال يوسف:

- ملح البحر كله في امرأة واحدة.

ثم التفت نحوي، وقال:

- أعجبك الكتاب؟

فقلت:

- ليس هو ذلك الكتاب الذي يجمع الكتب كلها في كتاب واحد.

فقال:

- لأن ذلك مستحيل.

وصمت مفكرا في أسباب هذه الاستحالة، ثم قال لي يوسف:
– الآن وجدنا إدريس الأصفر هل نقرأ كتابا آخر نشر باسمه؟

ولم أرد بل كنت أفكر في الملجأ الخيري، وأخذ مولاي عبد السلام يتحدث عن خولة وامتطائه لصهونها في جولة كانت ستزهق معها روحه، وأنه ما تردد في خوص تلك المغامرة، فقد بدأت خولة تشيخ، وتكاد تكون أحيانا، ولكن ملمسها وهي تطير فوق الأرض ما يزال ناعما وحارقا وعنقها عرقان، وهي تقاوم ما حل بجسدها من فتور لتمنحه فوران الموال الارتعاش، وأخذت يداه تعانقان عنقها والأشياء والأماكن تغيم وتتوارى، حيث لا تبقى سوى جهة هي جهة ذلك الخصاب الممكن، ولكن لا يمكن أن يخطب رجل مع فرس، وذكر متحسرا أنه لو كان بإمكانه أن يخصب مع خولنة وهو فوق سرجها، لكان ذلك شيئا باهرا ومفرحا وطفرت الدموع من عينيه.

اعتذر يوسف يريد الذهاب، وهو يقول لي إن تحضير السباغتيتي ينتظره، فاستبقاه مولاي عبد السلام، ولكنه تظاهر بالذهاب إلى دورة المياه فانسل ذاهبا إلى شأنه ولم يعد إلى جلستنا بعد انتظار وما استمرات وجودي مع مولاي عبد السلام في تلك الجلسة التي عمتها كآبة النادي فقعلت بعذر ما فعله يوسف، وانسحبت إلى الخلاء المراكض الذي خيم عليه ليل يهيم وبقيت وحيدا.

المحتويات

صدر للمؤلف

في الرواية

أبراج المدينة

رحيل البحر

المباءة

فوق القبور، تحت القمر

أيها الرائي

مغارات

أيام الرماد

مهاوي الحلم

ضحكة ورقاء

مفق أجنحة

كائنات محتملة

في القصة القصيرة:

أوصال الشجر المقطوعة

النداء بالأسماء

منزل اليمام

الشبابيك

يتعرى القلب

شيء من رائحته

شمس سوداء

يصدر قريبا

- زهرة الآي (رواية في ثلاثة أجزاء)